مُحَمَّد سَعِيد الرَّيْحَانِي

"عَدُوُّ الشَّمْسِ"، البَهْلَوَانُ الذِي صَارَ وَحْشاً

(أول رواية عن الثورة الليبية)

مُحَمَّد سَعِيد الرَّيْحَانِي

"عَدُوُّ الشَّمْسِ"، البَهْلَوَانُ الذِي صَارَ وَحْشاً

﴿أول رِوَايَة عن الثورة الليبية﴾

“The Enemy of the Sun”

(The First Novel on the Libyan Revolution)
By
Mohamed Saïd Raïhani
(Arabic Version)
2012

عنوان الكتاب : **"عدو الشمس، البهلوان الذي صار وحشا"**
نوع الكتاب : أول رواية عن الثورة الليبية
الكاتب : محمد سعيد الريحاني
الطبعة: الأولى، 2012
الناشر: محمد سعيد الريحاني
رقم الإيداع: **2012 MO 0484**
الترقيم الدولي (ISBN): 978-9954-30-767-0
المطبعة: طوب بريس، الرباط / المغرب

"محمد سعيد الريحاني روائيا"

حوار أجراه الشاعر المغربي أنس الفيلالي

سؤال: يبدو كأنك تخطط لحياتك تخطيطا فلا يبقى معها مجالا للصدفة. إذ برمجت مشوارك الأدبي منذ البداية وقسمته إلى مرحلتين: مرحلة **داكنة** ومرحلة **فاتحة** وأنت الآن، **بعد أكثر من عشرين عاما من الكتابة**، تستعد لإيقاف **المرحلة الأولى الداكنة** لتدخل **المرحلة الثانية الفاتحة**. كما أنك تكتب القصة القصيرة جدا بشكل مختلف عن الذي يكتب به غيرك من الكتاب إذ تحدد في البداية **التيمة القصصية** التي ستلتزم بها كل نصوص المجموعة ثم تحدد عناوين النصوص القصصية قبل أن تشرع في العمل بعد ذلك. فما مصدر هذه الكفاءات؟

جواب: دخلت سوق العمل مباشرة بعد تخرجي من الجامعة وعمري **أربعة وعشرين عاما** واشتغلت منذ ذلك الحين كموظف رسمي بقطاع التدريس وتدربت طيلة هذه المدة على جيلين من أجيال مناهج التدريس وهما جيل **التدريس بالأهداف** وجيل **التدريس بالكفايات**. وبينما كنت أعتقد بأن الأمر يهم فقط إعداد الوثائق وتمرير الدروس، انتبهت إلى أنني تمكنتُ من تلك المناهج في نفس الوقت الذي تمكنتْ فيه تلك المناهج مني فصارت حياتي استراتيجيات، ورؤاي خططا، وسلوكي عملا معقلنا لا مجال فيه للارتجال...

سؤال: هل بدأت مشوارك الأدبي مباشرة بكتابة القصة القصيرة؟

جواب: اكتشافي موهبتي في الكتابة كان الفضل فيه لأساتذتي في السنة الأولى إعدادي وعمري لا يتعدى الثالثة عشر عاما لكنني لم أباشر "**الكتابة الإبداعية الحرة**" إلا في سن السادسة عشر حيث كنت في القسم الداخلي بثانوية **جابر بن حيان** بمدينة **تطوان**، شمال **المغرب**، واعتقدت بأن التجربة التي كنت أمر بها تستحق التخليد فبدأت بكتابة **يومياتي** هناك باللغة الفرنسية...

سؤال: ومتى كان موعدك مع القصة القصيرة؟

جواب: بعد التحاقي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة **الأدب الإنجليزي** بجامعة **تطوان**، بدأت أكتب **لوحات مسرحية قصيرة** كما جربت **القصة القصيرة باللغة الإنجليزية**. لكنني، مباشرة بعد تخرجي، أدركت بأن قارئي الأول لا بد أن يكون **عربيا** فتحولت **من الكتابة باللغة الإنجليزية إلى الكتابة باللغة العربية** سنة 1991. وبعد هذا التاريخ بأربع سنوات عرفت نصوصي النشر الورقي لأول مرة عام 1994 في مرحلة هيمنت فيها "**الحزبية**" على النشر في وسائل الإعلام المغربية. ثم توالى نشر نصوصي بعد ذلك مما أكسبني ثقة في ما أكتبه من نصوص وفي المقاربة التي أتناول بها تيماتي إلى حدود سنة 2001 حيث كان موعدي مع **أول إصدار ورقي لا زلت أذكره بكثير من الفخر والاعتزاز**...

سؤال: والقصة القصيرة جدا؟

جواب: أول قصة قصيرة جدا كتبتها كان ذلك سنة 2005 بطلب من المرحوم الدكتور **إبراهيم الداقوقي**، مدير تحرير مجلة "**عالم الغد**" النمساوية، الذي بعث لي برسالة يطلب مني فيها المشاركة في **ملف للقصة القصيرة جدا**.

وبعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات، أي سنة 2008، نضجت الرغبة في الكتابة في هذا النوع الأدبي الوليد. وقد أنهيت لحد الساعة ثلاث مجموعات قصصية قصيرة جدا تشمل كل واحدة منها خمسين 50 نصا قصصيا قصيرا جدا بينما توزعت التيمات بينها بحيث كانت تيمة "**الحرية**" للمجموعة القصصية القصيرة جدا الأولى، وتيمة "**الحلم**" للمجموعة الثانية، وتيمة "**الحب**" للمجموعة الثالثة وبذلك يصبح رصيدي من القصص القصيرة جدا **مائة وخمسين نصا**...

سؤال: خُضت أيضا تجربة كتابة "**اليوميات**" و"**المذكرات**" و"**السيرة الذاتية**" و"**السيرة الذاتية الروائية**" و"**السيرة الذاتية المصورة**". ما الفرق بينها؟ ولماذا الخوض فيها جميعا؟

جواب: الكتابة الأدبية هي **واجهة ثانية للتأريخ للمجتمعات وعصور البشرية**: التأريخ لأشكال التعبير ولذائقة الشعوب ومُتَخَيّل الأجيال. لكن **التأريخ ليس فعلا حصريا خاصا بالأباطرة والملوك**. إنه أيضا البصمة التي يتركها الأفراد العاديون على الأرض التي تحتملهم وهو أيضا الأثر الذي يخلفه المهمشون والمنسيين خلفهم...

من هنا، تأتي أهمية الكتابة في هذه الأنواع الأدبية (اليوميات، المذكرات، السير الذاتية بألوانها...) حيث تصدح **الذات المهمشة** و**الأنا المنسية** لتسمع صوتها وتثير الانتباه إلى تفردها وتعرف بخصوصية تجربتها...

تلتقي "**اليوميات**" و"**المذكرات**" في كونهما يتمركزان حول مهمة وظيفية واحدة أو تؤرخان لفترة زمنية واحدة. أما الفارق بينهما فيبقى هو كون اليوميات تكتب في حينها وبشكل يومي مع التنصيص على التاريخ باليوم والشهر والسنة. أما "**المذكرات**" فتكتب بعد فترة قد تطول أو تقصر لكنها، في الحالتين معا، لا تُكْتَبُ لحظة وقوع الأحداث المتذكرة كما اليوميات...

وإذا كان من الكتاب، حين يتملكهم الملل، من ينتقل لمزاولة نشاط مغاير ليرتاح إما بقراءة الشعر أو المسرح أو رسم لوحة أو الإنصات للموسيقى أو مشاهدة فيلم... فأنا، فلحد الساعة، تكفيني إعادة قراءة يومياتي في الأرياف التي واظبت على كتابتها يوميا ما بين سنة 1992 و1996 والتي ستصدر قريبا مجمعة في كتاب بعدما **احتفظت بها لنفسي لمدة خمسة عشر عاما** بالتمام والكمال.

أما بالنسبة ل"**السيرة الذاتية**" و"**السيرة الذاتية الروائية**"، فإن كليهما يتوق لتذكر الحياة التي عاشها الفرد بغية تدوينها مع فارق جوهري وهو أن كاتب "**السيرة الذاتية**" لا يأبه ل"**الشكل الفني**" فكل همه هو الصدق في التذكر. أما كاتب "**السيرة الذاتية الروائية**" فيضع "**الصدق في التذكر والاعتراف**" و"**المتعة في الكتابة والتلقي**" على كفين متقايستين... لكن الأهداف تبقى ذاتها: **الرغبة في المصالحة مع الذات قبل الآخر، البحث عن زمن لم يعد موجودا إلا في الذاكرة والحلم وفيما تخزنه الذات الواعية، الإصرار على البقاء، تغليب الذاكرة على النسيان، الهروب من حاضر غير مطمئن...**

أما بالنسبة ل"**السيرة الذاتية المصورة**"، فربما لخصت تجربتي في كتابة "**سيرتي الذاتية المصورة**" الموسومة "**عندما تتحدث الصورة**" الموقف.

فقد كنت، لحظة تحريرها، أضع الصورة موضوع التذكر أمام عيني وأغوص في تفاصيلها المنسية فأتأقلم مع لباسها وإيماءاتها وشخوصها ثم أنطلق بذلك في **رحلة عبر الزمن**، سنين إلى الوراء، أرى الأشياء كما رأيتها آنذاك وأحس العلاقات كما رُبِطَتْ وقتها وأتنقل بين الأعمار كما أشاء من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب...

سؤال: من الكتابة بالمجموعة القصصية إلى الرواية مباشرة، ألم تشعر بصعوبة في الانتقال؟

جواب: أنا أكتب في **جنس السرد** منذ عشرين عاما (1991-2011). وإذا كنت قد تخصصت في البداية في نوعين سرديين قصيرين وهما "**القصة القصيرة**" ثم "**القصة القصيرة جدا**"، فإنني كنت أكتب دائما مجاميع قصصية بطعم روايات "**متقطعة الأنفاس**"، مجاميع قصصية تجمعها **تيمة واحدة** لكنها بدل التطور والنمو على طريقة الرواية فقد كانت تتشظى وتتكسر أفقيا وعموديا على طريقة السرد القصير...

لذلك، هوجمت من طرف **كتاب القصة التقليديين الذين طالبوني بالهجرة إلى الرواية وترك القصة القصيرة على حالها**. ويمكن أخذ عينة من هذا الهجوم من خلال الرسالة التي سأقرؤها على مسامعكم، وهي رسالة من **قاص تونسي** يلخص الأمر في رسالة مركزة:

"الأخ الأديب محمّد سعيد الرّيحاني
تحيّاتي الجميلة...
لقد بدا لي من المفيد أن أشاكس آراءك الواردة في هذه الورقة . فقد بدا واضحا أنّك تنطلق من موقف التزمته التزاما وهو ما يفعله كلّ أديب واع وملتزم. غير أنّني، وإن كنت أكبر فيك هذا الموقف الإيديولوجي الّذي يأتي عادة تحت ضغوط موضوعيّة شديدة القسوة وخاصّة من جانب الواقع السّياسي ، فإنّي أربأ بالأديب أن يتأثّر بمحيطه تأثّرا ميكانيكيّا.
إنّ الأديب ينبغي أن يبقى حرّا حتّى إزاء الواقع والكتابة والقارئ. ولا ينبغي له أن يكون بافلوفيا. ذلك أنّ نظريّة الانعكاس الّتي قلت بها لم تعد محلّ إجماع وتسليم كما كانت منذ أمد. ثمّ إنّ الأديب ليس فقط شاهدا على العصر، يقوم بمجرّد ردّ الفعل. بل هو صانع عصره وحادي أهل زمانه إلى آفاق الفكر والجمال والدّهشة.
ومن هنا، ينبغي له أن يكون حرّا وتلقائيّا ومرنا في تموقعه إيديولوجيّا وفنّيّا بحيث يكون هو صاحب المبادرة دائما. وصانعا من صنّاع السّياق. وإن لزمه أن يكون خارج كلّ السّياقات فعل...
يبقى المدار على طبيعة وعيه ووجهته الّتي يترسّمها لنفسه ولكتابته شكلا ومضمونا.
لعلّ ما سطّرته لنفسك كمنهج في كتابة القصّة وتكوين مجموعاتك القصصيّة وفق محاور لكلّ مجموعة محور يتنافى والحرّيّة المرجوّة للمبدع وللعمل الإبداعيّ. ذلك أنّه من طبيعة المجموعة القصصيّة أن تكون متنوّعة النّصوص متعدّدة الأغراض والمواضيع حتّى تكون بمثابة بستان الإبداع ولا تشبه النّصّ الرّوائيّ ذي الفصول المتعدّدة. ثمّ إنّ كثيرا من الأدباء كتبوا نصوصا كتابة تلقائيّة وعفويّة غير موجّهة فنّيّا ولا إيديولوجيّا فكانت من الآثار الإبداعيّة الخالدة الّتي أفلتت من ضيق اللّحظة التّاريخيّة وسجن النّظريّة الإبداعيّة...
لعلّ الأدب، في الأخير، يظلّ مجالا مستعصيا عن النّظريّة والتّقنين. وبالتّالي، يبقى النّصّ الإبداعيّ الأفضل هو ذلك الّذي نحاوله وننتظره دائما. والّذي يباغتنا أحيانا كثيرة من حيث لا نحتسب"...

سؤال: ما هو إذن الفرق بين الكتابة في كل من الرواية والقصة القصيرة والقصة القصيرة جدا؟

جواب: أهم محددات النوع الأدبي داخل جنس السرد هو "**الإيقاع**". فحيثما **أبطأ** الإيقاع كانت **الرواية**، وحيثما **أسرع** الإيقاع كانت **القصة القصيرة**، وحيثما **ارتفعت السرعة** إلى درجتها القصوى وتقلصت الجمل وحذفت المتواليات كانت **القصة القصيرة جدا...**

لكن يمكن أيضا اعتماد محددات أخرى ك "**الشخوص**" مثلا. ففي الرواية، يكون التأكيد على **الفرد داخل المجتمع**. أما في القصة القصيرة، فيكون التأكيد على **الفرد منعزلا عن المجتمع**. بينما في القصة القصيرة جدا، يتم التركيز عن **أفكار فردية مستقلة عن الفرد وعن المجتمع معا...**

سؤال: هل يعني هذا أن النوع السردي ذا الإيقاع الأبطأ هو النوع الأصعب؟

جواب: هناك من يعتبر **الرواية أصعب من كتابة القصة القصيرة والقصة القصيرة جدا** وأنها دالة على الموهبة الحقة وسعة الإطلاع على الأدب وعلى النفس البشرية والتاريخ والمجتمع. وهناك من يعتبر **القصة القصيرة أصعب من**

الرواية بفعل خاصيات التركيز والتكثيف والحذف. وهناك من ينتصر **للقصة القصيرة جدا ويرى فيها من الصعوبة والنبوغ** ما يراه أنصار الرواية والقصة القصيرة في نوعهم المفضل...

سؤال: هل يمكن الحديث عن القصة القصيرة كعتبة للرواية وكمرحلة ضرورية لكل من يفكر في اقتحام عالم الكتابة الروائية؟

جواب: من الأدباء المغاربة من جاء إلى الرواية من الصحافة **كعبد الكريم غلاب** مثلا**...**

ومنهم من قدم إليها من الشعر **كالطاهر بنجلون ومحمد الأشعري وعبد اللطيف اللعبي وحسن نجمي...**

وآخرون قدموا إليها من المسرح **كيوسف فاضل...**

وهناك من هاجر إليها من مجال النقد مثل **محمد برادة وعبد القادر الشاوي وحميد لحميداني...**

وفئة خامسة جاءت الرواية من الفلسفة **كعبد الله العروي وبنسالم حميش...**

وهناك طبعا من انتقل إلى الرواية من مجال القصة القصيرة مثل **محمد شكري ومحمد زفزاف ومحمد أنقار ومحمد عز الدين التازي** وآخرون كثيرون... **وربما اقتربت تجربتي من هذه الفئة الأخيرة ولكنني قطعا لا أنتمي إليها ما دمت كاتبا "يُرَاوِحُ" بين القصة القصيرة والقصة القصيرة جدا والرواية.**

فأنا لست بصدد تغيير نوع أدبي بآخر ولكنني **أكتب بالشكل الذي يناسب مضامين أعمالي:** فالقصة القصيرة جدا بالنسبة لي تبقى **شكلا سرديا مناسبا للسخرية** ممن حاكوا حولهم الملاحم الطوال أو شكلا مناسبا لرسم صغر الحياة وقصر الزمن... بينما القصة القصيرة تبقى **شكلا سرديا مناسبا لمقاربة التجربة الفردية وعزلة الفرد.** فيما تبقى الرواية **الشكل الأنسب دائما للملاحم والبطولات والفتوحات الجماعية والفردية**، العسكرية والغرامية وذلك إما بتمجيدها أو بالسخرية منها...

لذلك، فالحديث عن **كون القصة القصيرة عتبة للرواية غير دقيق.** ثم إنني **سأظل أكتب في جنس السرد بأنواعه الطويلة والقصيرة بحثا عن الشكل الأنسب لمضامين نصوصي وأعمالي.** ذلك لاعتقادي الراسخ بأنني، في مشواري الإبداعي، كنت محظوظا مرتين: **المرة الأولى** لأنني أكتب **باللغة العربية**، إحدى اللغات الأربع المصنفة للخلود صحبة **اللغة الصينية**، لغة ربع سكان العالم؛ **والإسبانية**، لغة قارتين؛ **والإنجليزية**، لغة العلوم والتقنية؛ **والمرة الثانية** لأنني تمرست على القصة القصيرة لمدة عشرين عاما قبل أن ألج عالم الرواية. شخصيا، أعتبر القصة القصيرة "**مُوَزِّعا**" رئيسيا داخل نوع السرد الأدبي يربط مهارات السرد الطويل بالقصير جدا...

سؤال: بينما وعدت القراء بقرب صدور رواية "**قيس وجولييت**" في إحدى حواراتك الصحفية المنشورة، جاءت رواية "**عدو الشمس، البهلوان الذي صار وحشا**" على حين غرة. ما الأسباب وراء تأجيل نشر العمل المتوقع والتعجيل بإصدار لعمل غير المتوقع؟

جواب: رواية "**عدو الشمس، البهلوان الذي صار وحشا**" كتبت على هامش "**الربيع العربي**" خلال تسعة أشهر، **ما بين شهري فبراير ونونبر 2011**، وهي تراجيكوميديا عسكري يبحث عن علاج لأمراضه النفسية والعقلية في "**كرسي الحكم**" بينما الشعب ينتظر منه قيادته نحو الأفضل. وتعتمد الرواية على تقنية "**الحذف**" الذي يولد "**السخرية**" بفعل "**الارتطام المستمر**" مع "**اللامتوقع**"...

في هذه الرواية، "**عدو الشمس، البهلوان الذي صار وحشا**"، أشعر بأنني أكثر ميلا إلى كُتّابِ السخرية من **سينيك وجورج برنارد شو** وغيرهما...

انتهيت من كتابة **الفصل التاسع** من الرواية في بداية سبتمبر 2011، يوم إلقاء القبض على العقيد **معمر القذافي**. وقد نشرتها الصحف بتسع فصول فحسب. وبذلك، بدأت تردني رسائل من القراء تطالبني بإتمام الرواية كي تساير التاريخ. هكذا، أضفت فصلين إضافيين هما **الفصل العاشر** و**الفصل الحادي عشر** حيث سيلقى القبض فيهما على **العقيد**. كما أن فكرة **أحد عشر فصلا** في الرواية توافق سنة "**الربيع العربي**"، سنة 2011، وهي دعامة قوية لروح **المصالحة بين الشكل والمضمون التي تسكنني...**

في ما يخص رواية "**قيس وجولييت**" وهي رواية تستوحي تقنياتها من "**روايات المراسلات**" Epistolary Novel التي شاعت في أوروبا القرن الثامن عشر لكنني أقدمها بمنظور جديد وفي شكل جديد إذ تعتمد الرواية فلسفة البناء جملة بعد جملة، رسالة بعد رسالة لأن الهدف محدد منذ البداية وهو البحث، **وسط الاختلاف** عن "**المشترك فيه**"، البحث عن **جذوة الحب...**

في هذه الرواية، أشعر بأنني أكثر ميلا إلى شعراء الغزل في الشعر العربي من قصائد **مجنون ليلى** مرورا **بجميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة** وانتهاء **بنزار قباني...**

أما رواية "**بطاقة هوية**"، فهي رواية فصولها هي معطيات بطاقة الهوية بحيث يصبح الفصل الأول هو "**الاسم الشخصي**"، والفصل الثاني هو "**الاسم العائلي**"، والفصل الثالث "هو "**اسم الأب ومهنته**"، والفصل الرابع هو "**اسم الأم ومهنتها**"، والفصل الخامس هو "**العنوان**" والفصل السادس والأخير هو "**تاريخ انتهاء صلاحية البطاقة**"...

في البداية، كتبت هذه الرواية، "**بطاقة هوية**"، تحت تأثير **تيار الوعي** Stream of Consciousness الذي عُرِفَ به **هنري دجيمس وفيرجينيا وولف ووليام فولكنر** ولكنني أعدت كتابتها ثانية وبطريقة مختلفة يشتغل فيها الزمن بطريقة **حلزونية** Spiral تظهر فيها **الوقائع وهي تراوح مكانها في الوقت الذي تحاول فيه الأحداث الإيهام بتطور الوقائع وتقدمها...**

سؤال: الرواية، كباقي الأنواع السردية الحديثة، فن غربي. هل يمكن الحديث عن رواية عربية؟

جواب: خلال الانتقال من الملحمة إلى الرواية، من **جلجامش والإلياذة والأوديسة** إلى "**البؤساء**" و"**الحرب والسلام**" و"**مئة عام من العزلة**"، أثمر البحث في تتبع أصول الرواية إلى نتائج أظهرت تحكم العصبية الثقافية في البحث العلمي...

فبينما يعتبر الباحثون العرب "**ألف ليلة وليلة**" المكتوبة في القرن العاشر الميلادي كأول رواية في التاريخ **نظرا للسبق الزمني** الذي يصل إلى **سبعة قرون** عن ذيوع صيت الرواية بالشكل المتعارف عليه الآن، يصر الباحثون الأنجلوسكسون على كون "**توم دجونس**" هي أول رواية في التاريخ **نظرا للنبوغ التقني المبكر والمذهل** الذي أظهره الكاتب الإنجليزي **هنري فيلدينغ**، بينما يروج الباحثون الإسبانيكيون ل"**دون كيشوت دي لامانتشا**" للروائي الإسباني **ميغيل سيرفانتيس** كأول رواية في التاريخ**...**

*** "محمد سعيد الريحاني روائيا"** هو اللقاء **التاسع والثلاثون** من سلسلة الحوارات الصحفية **الأربعين** التي أجراها الشاعر المغربي **أنس الفيلالي** مع **محمد سعيد الريحاني** والمضمنة في كتابه "**رَيْحَانِيَاتٌ**"، قيد الإعداد للطبع.

الفصل الأول

الصمت الذي يخنق القاعة الفسيحة تُضاعف منْ سطوته النوافذ الموصدة دون السرير الوحيد المحاصر في الوسط حيث يتمدد رجل ربطت أطرافه بالسلاسل مع قوائم السرير الذي بدأ يهتز بفعل اضطراب النائم الغارق في كوابيسه...

أشباح تلاحقه في كل مكان ومن كل جهة...

رجال بلباس روماني قديم يحاولون، بجنون، اللحاق به لكنهم يبدون وكأنهم يَجْرون في مكانهم مُتَوَعّدِينَ:
- "**جايين لك، يا معمر! جايين لك!**"...

ينفخ الذعر جسد النزيل ويحيله إلى بالونة ضخمة تتطلع للطيران إلى أي مكان بعيدا عن الأيدي المجنونة المتطاولة لكن الرجل لا يستطيع تغيير حتى وضعية استلقائه على الفراش حيث سُمِّرَ بوجهه الطويل المسنون مُصَوّباً إلى سقف الغرفة...

وحدها الكلمات، في رَنّتِهَا المذعورة، لازالت تطاوع لسانه:
- "**من أنتم؟!**"...

ثم تتوالى الأسماء والمسميات على أثير كابوسه:
- "**أنا نيرون!**"
- "**أنا كاليغولا!**"
- "**أنا كركللا!**"
- "**أنا تيتوس!**"
- "**أنا...!**"
- "**أنا...!**"

يحاول الفرار من الأسماء التي تلاحقه لكن السلاسل لا تسعفه.

يحاول الهرب من حلمه، في حلمه...

يتسلق السور الذي رفع أمتارا إلى السماء للحيلولة دون فرار النزلاء إلى خارج مصحة "**عين شمس**" للأمراض العقلية لكن تهديد قياصرة الرومان لا يرن فقط في أذنيه وإنما يسري في كل أوصاله:
- "**جايين لك، يا معمر! جايين لك!**"...

تأجج هياج النزيل وسرى صدى صراخه إلى باقي قاعات العيادة وأصاب باقي النزلاء بعدوى الخوف والصراخ فحضرت الممرضات اللائي طلبن الطبيب الذي طلب بدوره حضور رئيس الجمهورية للتشاور في مصير النزيل الذي اقتيد إلى العيادة بطلب شخصي من الرئيس نفسه:
الطبيب: النزيل الأجنبي الذي استقبلناه بناء على طلب فخامتكم يعاني من عرضين. العرض الأول هو **جنون العظمة** والعرض الثاني هو **الفصام**.
الرئيس: وما العلاج؟

الطبيب: إما الإعدام، يا فخامة الرئيس، أو مساعدته في انقلاب على الحكم في بلاده ينصب بعده رئيسا على طريقة القياصرة!
الرئيس: وما نوع الخطر الممكن أن يصدر عنه في حالة اللاإعدام واللاانقلاب؟
الطبيب: الجواب على سؤالكم، ، يا فخامة الرئيس، مشروط بمعرفة الدولة التي سيعيش فيها هذا النزيل بعد خروجه من عيادتنا **بِعَيْن شَمْس؟**
الرئيس: طبعا، سيعيش بين ذويه في ليبيا!
الطبيب: إذن، ساعده على العلاج بتوجيه تركيزه على القيام بمحاولة انقلاب على نظام الحكم هناك. فكرسي الحكم هو علاج **مجانين العظمة،** يا فخامة الرئيس.
الرئيس: هذا علاج مرضى **جنون العظمة،** وماذا عن مرضى **الفصام؟!**
الطبيب: مرضى **الفصام** إذا اعطوا فرصة للحكم فإن الشعارات التي تتمحور حولها كل سياساتهم ومشاريعهم ومبادراتهم هي "**الوحْدة**". ليس المقصود ب"**الوحْدة**" الوحدة الداخلية والمصالحة مع الذات وإنما المقصود ب"**الوحدة**" توحيد أي شيء خارجهم بَدْءً من وحدة الدول والشركات والبحار والسماوات والنجوم والكواكب... إنهم مجانين توحيد كل شيء للتخفيف من نيران التناقضات الطاحنة داخلهم...
الرئيس: وأين الخطر في كل هذا؟
الطبيب: الخطر، يا فخامة الرئيس، هو أنه سيعتبر ما يراه "**حقيقة**" وسيدافع عنها بأرواح ودماء كل الناس!
الرئيس: ما أريد أن أعرفه هو هل هذا الرجل معافى أم لا؟
الطبيب: هذا النزيل متماثل للشفاء ولكن عودة المرض من جديد احتمال قوي. وآنذاك، لن يكون ثمة علاج ممكن لأن تلك المرحلة من المرض ستكون مرحلة جد متقدمة مثل السعار الأخير الذي يصيب "**الدُّوبِرْمَان**" ، الذئب- الكلب، حيث لا ينفع معه آنئذ سوى قتله أو تنصيبه **رئيسا- إلها!**
الرئيس: حسنا. أفرج عنه، يا دكتور!
الطبيب: لِيَكُنْ، يا فخامة السيد الرئيس!

الزغاريد في كل مكان...

البعض روج بأن رائد الفضاء **لويس آرمسترونغ** سمع الزغاريد من على سطح القمر حين وطأته قدماه لأول مرة في تاريخ البشرية...

وميض الكاميرات في كل مكان...

البعض روج بأنه رآى صورته منقوشة على قرص القمر في الليالي البيض من منتصف الشهر الهجري...

صدى خطابه الأول في كل مكان، على أمواج كل الإذاعات والتلفزات، بين مواد كل الجرائد والمجلات والمناشير:

"إن السلطة والحكم ينتجان "**الطاغية**". وعليه، ارتأيت أن **أقتسم معكم القوتين** لضمان الفعالية: فلكم أنتم الشعب **السلطة؛** ولي أنا القائد **الحُكم.**

كما أن حراسة الثروة والتصرف فيها تنتجان "**الإسراف والتبذير**". وعليه، ارتأيت أن أقتسم معكم الدورين: فلكم، أنتم الشعب، **حراسة الثروة النفطية وباقي الثروات الطبيعية؛** ولي، أنا القائد، **صلاحية التصرف فيها.**

لن أكون لكم حاكما فرديا يحكم رعايا منفردين. أنتم ثوار أسقطتم نظاما فاسدا. أنتم أبناء شعب عظيم. لستم أفرادا ضالين هائمين على وجوهكم حتى يحكمكم حاكم فرد. أنتم أبناء وأولياء عائلات. أنتم تنتمون إلى عائلات أصيلة تربطها بعضا لبعض أواصر الانتماء إلى الوطن. أنتم **عائلات حرة** ستحكمها، من الآن فصاعدا، **عائلة حاكمة حرة.** وهذا هو جوهر هذه الثورة المجيدة التي ستوحدنا جميعا وتؤلف بين قلوبنا والتي سنكون جميعا مستعدين للدفاع عنها حتى آخر قطرة من آخر طفل!..."

همْسٌ في همْسٍ...

الناس تتبادل اندهاشها من مضمون خطاب القائد، مغمغمة:
- إنه يقول بأننا قمنا بثورة بينما كنا جميعا، لحظة إعلان الخبر، نشرب القهوة العربية في مقاهي الشيشة!...
- أمر مضحك فعلا ولو أنني لاحظت علامات أخرى أكثر طرافة في خطابه وإيماءاته بحيث بدا لي، في لحظة من اللحظات، **بهلوانا**...
- كيف يكون **بهلوانا** وهو **قائد ثورة**؟!
- ألم تقل قبل قليل بأنك تفاجأت لكونه لم تحدث ثورة في البلد ومع ذلك فهو يقودها؟ كيف يمكنه قيادة ثورة لم تحدث؟ أليس هذا سيركا؟ أليس الرجل بهلوانا؟!
- ومع ذلك، فالمرحلة تحتاج إلى القليل من الفكاهة للترويح عن النفس من الإحباطات المتلاحقة. ربما، من الأفضل أن يكون الرئيس بهلوانا على أن يكون شيخا وقورا يدعي الجد ويجهد نفسه في إقناعنا بمظهره ونيته...
- من هنا، أنا أرى بأن ما يحدث هو فعلا ثورة!
- ثورة بهلوان على مظاهر الرزانة والوقار والحكمة!...

يغرق الجميع في الضحك وينصرفون غير مبالين بالقائد مترجلا قربهم وسط هالة من الحرس العسكري. وحده، صديق الطفولة، انتبه إليه وأوقفه غير مبال بالاستنفار الذي عمّ حاشية القائد:
- اسمح لي، أيها الأخ القائد!
- أيها الحرس، لا تبعدوه. اتركوا المواطن يخاطب أخاه القائد الثائر بكل حرية دونما الحاجة إلى البروتوكولات البائدة، فهذه الثورة قامت ضد الشكليات التي تعطل المطالب الجوهرية. اتركوه!...
- ألم تعرفني؟ أنا صديق الطفولة في مدارس مدينة **سرت**. وأنت، ألست **معمر قذاف الدم**؟
- بلى، ولكنني غيرت اسمي. انس هذا الاسم حين تكلمني كقائد دولة وزعيم ثورة!
- ولكنه اسمك الحقيقي، أيها القائد، فأنا لم أعرفك حين استمعت لخبر الانقلاب على التلفاز!
- أولا، هذه ثورة وليست انقلابا. ثانيا، أنا غيرت اسمي الحقيقي الذي تعرفه بالاسم المستعار الذي عليك أن تعرفه.
- ولكن: هل ستحكم البلاد باسم مستعار؟
- وما المشكلة؟
- الاسم المستعار للشخصيات التي لها **"وجهان"**: وجه **حقيقي** ووجه **زائف**. ولهذا، كان من يلجأ إلى الأسماء المستعارة هم **المومسات، والمجرمون والجواسيس...**
- أعتقد بأنك الآن تأكدت من هويتي. بقي لك أن تعرف بأنني الآن قد صرت **معمر القذافي** وأن هذه هي مصافحتك الأخيرة لي فلي من المهام والأشغال ما يشغلني عن الدردشة مع أصدقاء الطفولة. فأنا، كما ستبدي لك الأيام، قائد دولة عظيمة واسمي الشخصي يحيل على اسم قائدين عظيمين هما **عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز**. وعليك التأكد من تطابق أسمائنا وأفعالنا نحن الثلاثة إذا ما صادفتني أتفقد شؤون الرعية بنفسي سواء في الليل أو في النهار. وداعا!...

بإيماءة من يده، عاد الحرس ليحف بالقائد من كل جانب ويحميه من تطفل المتطفلين لكنهم لم يستطيعوا حماية الزعيم من الفكرة الجديدة التي بدأت للتو مراودته عن نفسه: لقد صار **العُمَرَيْن** في آن، **عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز**. ولأن الحراس لم يستطيعوا حمايته من غزو الأفكار الجديدة، فقد أمرهم بالذهاب إلى بيوتهم وتركه لوحده يتفقد أحوال الرعية...

قرب باب قصره، وجد متسولة قبلت يده اليمنى ووضعت في يده اليسرى وصفة علاج لا تستطيع تسديدها فصرخ في وجهها:
- ولكن التطبيب مجاني في البلاد؟ فكيف تتسولين علاجا هو في متناول يدك بحكم الحق والقانون؟

فأجابت:
- التطبيب ليس مجانيا علينا. نحن لسنا من **حزب اللجان الثورية**، أيها القائد. يمكنك الذهاب إلى باب المستشفى لتتأكد من صحة قولي!

قرب باب المستشفى تسابقت النساء لتقبيل يد **معمر القذافي** اليمنى وفي أيديهن وصفات طبية تنتظر الدس في يد **معمر القذافي** اليسرى ولسان حالهن يقول بأنهن لسن من **حزب اللجان الثورية** فصاح القائد:
-"**شوهتموني أمام كاميرات العالم. أنتن لستن ليبيات. أقسم بالثورة المجيدة بأنكن غير ليبيات. الليبيات لا يقدرن على التسول**".

أخرجت النسوة بطائق هويتهن وهن يقسمن بالله للقائد الثائر بأنهن ليبيات أبا عن جد فاستقل **معمر القذافي** سيارته وانصرف وقد أيقن بأنه لن يكون لا **عمر بن الخطاب** ولا **عمر بن عبد العزيز**...

الفصل الثاني

بعد انقلاب **الفاتح من شتنبر** بالتقويم **الأخضر** الذي يوافق نزول الإنسان على سطح القمربالتقويم **الملون**، وبث أول خطاب للعسكري الذي لا يعرفه أحد، تنفس الناس الصعداء لرؤية " **بهلوان**" يحكمهم وينفس عنهم كربهم وهمهم بتسليتهم وإضحاكهم. ومع مرور الأيام، صار الشعب برمته يطلبه لإضحاكهم بينما يرى العسكري بأنه مطلوب من لدن الجماهير للضرورة التاريخية، فراح يكتب خواطره حيثما تملكه **الإلهام** أو **الوحي** أو **المَسّ** ليجمعها مرتبة ومبوبة في كتاب لا يجمعه جامع ولا يربطه رابط وهو ما حيره لحظة قرار عنونته قبل دفعه للمطبعة. وبعد مخاض وجنون، قرر طبعه بلا عنوان...

لم تنتبه المطبعة إلى نواقص مخطوط قادم للتو من أعلى هرم في السلطة بالبلاد فغلفته على وجه السرعة باللون الأخضر وهمت بالشروع في الإجراءات الإدارية التي تسبق قانونيا النشر ولكنها واجهت مشكلة لدى المساءلة عند مصلحة الإيداع في وزارة الثقافة إذ لا يمكن لكتاب أن يصدر دون عنوان فسماه القيم على المطبعة "**كتابا أخضرا**" نسبة إلى لون الغلاف:

- الأخ القائد العظيم، الكتاب الذي سلمتني إياه كان لابد له من عنوان فسميته ب "**الكتاب الأخضر**"، ملتمسا الصفح والغفران من جنابكم المعظم!

- حسنا فعلت! أخضر! هذا هو اللون الذي لم أره في طفولتي بين رمال الصحاري وكثبان الصحاري وعواصف الصحاري...

- ولقد ابتكرت لك إيماءة تليق بظهورك ك"**ثائر**" و"**محرر**" و"**مخلص**": إيماءة القبضتين المشدودتين إلى بعضهما البعض، رمز الوحدة!

- حسنا فعلت، أيها الخديم المطيع! الوحدة، هذا هو دوائي من الصراع الذي يعبث بأحشائي وأوصالي ودواخل ذاتي. الوحدة، هذه هي وصفتي!

أعجبت العقيد، زعيم الثورة، الفكرة فتبناها شعارا لحياته وسياسته وثورته وَلِبِشْرَةِ شعبه فصار ينسب كل شيء إلى الخضرة فحول العلم الثلاثي الألوان إلى علم أخضر وسمى الساحات باللون الأخضر ووسم الجرائد بالأخضر لكنه تردد كثيرا في تسمية ابنه البكر ب"**الأخضر**" لأنه علم بأن الاسم شائع في الجزائر، الدولة الجارة، إلى درجة العامية فعدل عن التسمية التي قد تضر بمستقبل ابنه:

"أيها الشعب العظيم، إن وحدة الشعوب من وحدة الخطاب المتداول بينها. لذلك، فقد عكفت مؤخرا على إعداد كتاب يكون لكم مرجعا في وضوئكم وصلاتكم وَحَجِّكم وشهادتكم وموتكم وبعثكم. وهذا سيتطلب مصادرة كل الكتب الوافدة من الخارج ومراقبة كل الكتب المطبوعة في الداخل.

وحده "**الكتاب الأخضر**" حر في التداول وحاضر في كل ربوع البلاد حيثما انتصبت الرفوف: **في البيوت ومقرات العمل والأرصفة والسهول والهضاب والوديان والتلال والجبال...**

وحده "**الكتاب الأخضر**" يُقْرَأُ وَيُشْرَحُ في كل مكان...

ولهذا الغرض، تم فتحُ باب التطوع في وجه المناضلين والمكافحين والمجاهدين والمقاومين من الأحرار لتحمل المهمة. كما تم إحداثُ آلات ثابتة على جنبات الأرصفة على شكل "**دجوك بوكس**" جاهزة لقراءة "**الكتاب الأخضر**" مقابل إلقاء قطعة معدنية واحدة من فئة دينار واحد في شق الجهاز الآلي أما تفسير "**الكتاب الأخضر**" فلقاء دينارين...

"**الكتاب الأخضر**" كتاب مقدس نزل على شخصي الكريم هذا في بلدي الحبيب هذا قبل أن يزحف على العالم قريبا. وأهم نبوءاته: **مفهوم الجماهيرية والعمل الجماهيري.**

إن **مفهوم الجماهيرية** مفهوم جديد يختلف عن **الملكية الوراثية** التي تستمد قوتها من شخص واحد ويختلف عن **الجمهورية التداولية** التي تستمد مشروعيتها من ممثلي الشعب.

إن نبوة "**الكتاب الأخضر**" تتمثل في كون **الجماهيرية** تستمد مشروعيتها من الشعب مباشرة دون وصاية أو تمثيلية. وبهذه الطريقة، لن يبق ثمة حاجة إلى المنظمات أو الجمعيات أو الأحزاب أو النقابات.

لقد أوقفنا التاريخ...

فلا أحزاب، بعد اليوم، ولا نقابات ولا جمعيات...

لا نقد ولا محاسبة ولا مطالب ولا أسئلة...

لا كتب مقدسة...

لا شيء غيري وغير كتابي وخطبي...

نحن في عجلة من أمرنا فالتاريخ ينتظرنا ولا حاجة لنا بمحترفي وضع العصي في العجلات".

لم يخطر على بال **العقيد**، في أي لحظة من لحظات الماضي، القدرة السحرية لكرسي السلطة على تحقيق الأحلام المستحيلة. فبمجرد استيلائه على الكرسي عام نزول الإنسان على سطح القمر، صار "**مُفَكّرا**" بإصدار وحيد عنوانه "**الكتاب الأخضر**"، و"**ثائرا**" بفضل انقلاب على ملك بلغ من العمر عتيا، و"**محبوب الجماهير**" بفضل ظهوره اليومي على الشاشات: الكبرى والمتوسطة والصغرى... لكنه، حين كان يختلي بنفسه كان بالكاد يصدق بأنه "**رئيس دولة**". وخطرت على باله أفكار متناسلة:

"ما دام العالم سيعرف وضعي الجديد كرئيس، فَعَليَّ بترقيتي لنفسي كرئيس مدى الحياة بصفة مقبولة لدى كل الطبقات والفئات والأوساط: صفة "**زعيم**" تفي بالغرض. أما أجيال المستقبل، فعليها أن تعرف بأنني حكمت. لذلك، عليها إما أن تقرأ ذلك في أمهات الكتب ك"**الكتاب الأخضر**" أو أن يضع أحدهم يده على كنز يحمل اسمي في الصحراء أو البحرثم يشيع الخبر فيعود اسمي ثانية إلى الهواء لينعش المتنفسين ويغذي الجوعى للمعرفة والحقيقة. ولأنني صرت رئيس دولة، فقد وجب على العالم أن يعرف ذلك وأن يكتب الجميع عنه. هذا بالطبع سيعني حضوري يوميا على وسائل الإعلام ولو بسرد النكت أو ارتجال طرائف في المؤتمرات أو اقتراح المبادرات المضحكة......

ثورة القائد على الملك تلتها ثورته على زوجته الأولى فكان أول ضحايا الثورة هو ابنه البكر من زوجته الأولى لأنه من جيل حكم الملك. أما الأولاد الذين ازدادوا في حضن الثورة فكانوا يحملون في جيناتهم **لون الثورة**: اللون "**الأخضر**".

في **تصميمه لقصور** ما بعد الثورة على الملك وعلى زوجته الأولى، أطلق **العقيد** الثائر ثورته الثانية الخاصة بالمعمار. فقد بدأ يلح على تقوية "**العالم السفلي**" من القصور: **السراديب**. وفي **تصميم الساحات**، بدأ يلح على علو الجهة التي سيقف

فوقها لإلقاء الخطب. أما في **تصميم السجون**، فقد بدأ يلح على ضرورة تبني تقنية الأقفاص الحديدية المستقلة المغطاة بالإسمنت المسلح...

بعد ثوراته الثلاث، التي قام بها لوحده ضد الملك وضد زوجته الأولى وضد نماذج العمارة التقليدية في تشييد السجون والقصور، قام العقيد **بثورة رابعة**: الثورة على الذكور من الجنود، بقايا رموز عهد الملكية البائد، مُعَيّنا العسكريات النساء محلهم فكانت من بينهن **نساء حارسات** و**نساء طبيبات** و**نساء ممرضات** و**نساء مروضات** و**نساء مدلكات** و**نساء زيجات** و**نساء خليلات**...

وحين شعر الجنود الذكور بأنه لم يبق لهم نساءٌ، ثاروا عليه في انقلاب صاحب أحبطته النسوة من الجنود ورفعن أسهمهن في عيني **العقيد الثائر** الذي بدأ يفكر في **ثورة خامسة...**

لقد كانت الشركات الأجنبية تأخذ **تسعين في المائة** وتترك للشعب الليبي **عشرة في المائة**. لذلك، قام العقيد ب **"تأميم"** النفط فصارت الشركات الأجنبية تأخد فقط **عشرة في المائة** بينما هو وأسرته يأخذون **التسعين في المائة** المتبقية ويجرون **"العقود الخاصة"** مع الدول تُحَوّلُ بموجبها الأموال إلى الحسابات الخاصة لعائلة القذافي المصغرة والممتدة حتى إذا ما اسْتُفِزَّ، شَغّلَ الكاميرا والميكروفون المثبتين في غرفة نومه وارتجل مباشرة على الأثير خطابا يقول فيه:
- "أنا المجد! لقد أممت النفط! لقد صيرت النفط في يد الشعب! أنا المجد والمجد لي! أنا الشعب والشعب أنا! صوت الشعب صوتي، وروح الشعب روحي، ومزاج الشعب مزاجي، وثروة الشعب ثروتي، وحساب الشعب البنكي حسابي، وتلفزته تلفزتي، وإذاعته إذاعتي، وما يريد الشعب قوله أو فعله أقوله وأفعله نيابة عنه. ولهذا السبب الأخير، رَبَطْتُ استوديو الإذاعة والتلفزة الليبية بغرفة نومي حتى أعيش لقضية بلدي في صحوي ونومي.."

ثم يوقف الخطاب بضغطة على الزر لِيُرْبَطَ الاتصال مجددا بين **الجهتين المنتظرتين**، أستوديوهات **الإذاعة والتلفزة** المركزيتين في العاصمة وجمهور **المستمعين والمشاهدين** من المواطنين عبر أرجاء البلاد، ممن ألفوا خرجاته وتخريجاته واعتادوا على قطع البرامج والمسلسلات والأخبار لفسح المجال لخطابات العقيد الثائر الذي، إذا ما لم يعجبه برنامج من البرامج المباشرة والمسجلة على السواء، ضغط، من تحت ملاءته على السرير، على الزر لتتوقف البرامج أو يتوقف البث برمته. كما يحدث أحيانا ألا يروقه برنامج على فضائيات أجنبية، فيهاتف إدارة الاستخبارات التي تبدأ للتو برشق الفضائية المعنية في القمر المعين مباشرة من **"فيللا الاستخبارات"** بالرسائل الخاطئة والرموز المشوشة فتعطل عمل الفضائيات المزعجة أو تشل حركتها بالمرة...

وبينما بدأ العقيد الثائر يفكر في **ثورة أخيرة** يستبدل فيها رفاقه وأفراد نظامه وحكوماته بأبنائه الذي ولدوا بعد ثورته ونموا في حضنها وترعرعوا في قصورها وثرواتها وممتلكاتها، آنئذ عاوده الكابوس القديم ثانية، رجال بلباس روماني قديم يحاولون اللحاق به بجنون وهم يجرون في مكانهم متوعدين:
- **"جايين لك، يا معمر! جايين لك!"...**
- **"من أنتم؟!"...**

ثم تتوالى الأسماء والمسميات على مسامعه:
- **"أنا نيرون!"**
- **"أنا كاليغولا!"**
- **"أنا كركللا!"**
- **"أنا تيتوس!"**
- **"أنا...!"**
- **"أنا...!"**

الفصل الثالث

صب **العقيد الثائر** كوب شاي للعراف المقرفص على الحصير قبالته تحت الخيمة المنصوبة خارج بهرجة القصر ونسائه وغلمانه وخدمه وقال:
- الأبناء مفخرة الآباء في تجمعاتهم حيث يَعُدّون أبناءهم كما يَعُدّون ممتلكاتهم. والأبناء أيضا منشطو الذاكرة حيث يسترجع الآباء في خلوتهم ماضي الطفولة والشباب. كما أن كثرة الأبناء عربون حماية من أعداء الغد وتأمين حقيقي ومتين ضد مفاجآت المستقبل. أليس كذلك، أيها العارف بأسرار الفراسة وقراءة الطالع؟
- كلامك صحيح، أيها الأخ القائد. المال والبنون زينة الحياة الدنيا...
- قل لي، إذن. هل أنت مستعد لقراءة مستقبل أبنائي؟
- نعم، أيها الأخ القائد. نادِ على الأطفال!

دخلت كوكبة من الأطفال فضاء الغرفة وقرفصوا على الحصير فخاطبهم قارئ الكف:
- هيا، يا أطفالي. مدوا لي أكفكم ما دمتم صغارا وغير قادرين على فهم قراءاتي!

قاطعه **العقيد**، قائلا:
- وماذا لو عرفوا بالأمر وهم بالغون؟!...
- سيقتلونني، أيها الأخ القائد...
- ولماذا سيقتلونك وأنت تقرأ لهم طالعهم وتفتح عيونهم على ما غاب على الناس جميعا؟
- إن حكمة الغيب هي أن يعيش المرء حياته غير آبه بما ينتظره. أما أن يتحدى المرء القاعدة ويمر عبر الباب الأخرى لمعرفة قدره، فسبيل غير آمن لأن ما ينتظر المرء ليس بالضرورة مُرْضٍ ومفرح ومريح لمن يتوق لمعرفته أو سماعه أو رؤيته.
- هذا غير مهم، الآن. خُذْ كفّ الطفل الأول وهات قراءتك!

أخذ العراف يد الطفل الأول وقلب كفها إلى أعلى وقارنها بالكف اليسرى ثم عاد ليدقق النظر في خطوطها وأشكالها وطول وقصر أصابعها قبل أن يجهر بقراءته:
- هذا الطفل، باستثناء خاصية الاندفاع التي تصل بين شخصيتيكما، لن يشبهك في شيء. فلا علاقة له لا بالسلاح ولا بالجدال ولا بالسياسة ولا بأي شيء مما كبرت على حُبه، أيها القائد. إنه لاعب كرة قدم. ومهمتك هي الانتباه المستمر إلى الخزينة العامة للبلاد حين يدخلها. فهو لاعب فاشل ولكنه لن يتخلى عن هوايته ولو بشراء مكانه في كبريات الأندية العالمية وأداء المصاريف المترتبة عن كل ذلك... من بيت مال المسلمين.

ترك العراف يد الطفل أمام ذهول الأب العقيد الذي بدأ ينظر لابنه نظرة مختلفة عن نظرة زينة الحياة الدنيا ولم ينتبه لنفسه إلا بعدما شرع العراف يقرأ كفّ الطفلة الموالية:
- لو لم تكن بنتا، لقلت بأنها أنت بلحمك ودمك. هذه الطفلة عاشقة للجدال والنقاش وستقضي غدها بليله ونهاره في ساحة **الهايد بارك** بعاصمة الضباب تخطب في الناس وتروج ل"**الكتاب الأخضر**" وتبشر ب "**سلطة الشعب**"...

أخيرا، عادت البسمة إلى محيا الأب **العقيد** الذي بدأ هذه المرة يختار الأكف ليقدمها للعراف الذي تكفيه ثوان معدودة لتتدفق نبوءاته:
- هذا سيشوه صورتك، أيها الأخ الثائر. إنه سكير، فاحش، داعر، مقامر... هل يمكن أن يكون هذا الولد من صلبك، أيها القائد؟!...

تملك الحرج القائد فنظر يمنة ويسرة خوفا من تطاول الآذان على أحاديثهما وعلى أسرار أبنائه ثم جر كفَّ طفل آخر وقدمه للعراف الذي لم يتأخر في تفكيك طلاسم الخطوط والأشكال المحفورة عليها:
- هذا بهلوان ماهر، أيها القائد. إنه يجيد اللعب على حبلين. سيكون ساعدك الأيمن من خلال مخالفتك في السلم وتأييدك في الحرب لضمان التوازن لصالحك لكنه، خارج السيرك السياسي، مسرف للغاية وكسول جدا ولن يحصل على شهاداته الجامعية إلا بالرشاوي في شكل هدايا مالية ثقيلة...

مد القائد يدي طفلين دفعة واحدة للعراف مغمغما في توتر:
- وماذا تقرأ هنا في هذين الكفين؟

تأملهما العراف وقال بصوته الجهوري الذي بدأ يثير حفيظة العقيد:
- القتل والتنكيل وشرب دم الخصوم هي سمة هذين الطفلين معا. وبدل أن يتنافسا على تربية الحيوانات الأليفة من قطط وكلاب وحمام ودجاج ويسمونها بأسماء الآخرين، سينصب اهتمامهما على تربية الكتائب لترهيب الشعب وترويعه وسيسمونها بأسمائهما: **كتيبة خميس، كتيبة المعتصم...**

همهم العقيد بصوت مسموع:
- أتراني أراهن على مثل هؤلاء ممن أعد لقيادة البلاد وخلافتي عليها؟ مجرد لاعبين فاشلين في السيرك وكرة القدم وسكارى وقتلة وحكواتيين؟ أين **الأسرة-النظام السياسي** التي شغلت فكري ووجداني؟...

وبشكل مباغث، مدّ العقيد كفه للعراف، قائلا:
- وهنا، هل يمكنك قراءة أي شيء؟

أبطلت المفاجأة لسان العراف الذي لم يتوقع يوما أن يقرأ قدر حاكم عربي جلس على كرسي الحكم لسنوات تناهز سنوات عمره. عقدت المفاجأة لسانه ولم يخلصه منها إلا إصرار العقيد على سماع قراءة كفه:
- أرى أشخاصا في لباس قياصرة الرومان القدامى برغوة الغضب تتطاير من أشداقهم إلى الهواء في شكل بالونات صابونية ملونة وهم يجرون وراءك للإمساك بك صائحين...

تغير صوت العقيد وشحب لونه وكاد يسقط في جلسته:
- أيقولون: "**جايين لك، يا معمر! جايين لك!**"؟...
- نعم، أيها القائد. هل تسمعهم؟
- مرارا!...
- وأين سمعتهم، أيها الأخ القائد؟ هم يجرون ويرغدون ويزبدون على صفحة كفك؟ هل أنت أيضا قارئ كف؟!

لم يجب العقيد لأنه لم يسمع السؤال فقد كان غارقا في عوالمه الداخلية:
"لا مستقبل لي ولا لأبنائي، إذن!
لا مستقبل لي لأن لي عدوا!
وعدوي من دمي ولحمي!
عدوي هو شعبي وعليَّ الاستعداد له!
عليَّ أن أعدَّ له ما استطعت من قوة!"

خارج عالمه الداخلي، كان المواطنون يتساءلون:
- "**لمن يكدس الزعيم كل هذا السلاح وضد من؟**"

وقبل مرور السلاح أمام أعين المواطنين إلى الثكنات، كان تجار السلاح أنفسهم قد تساءلوا عن الجهة التي يسميها العقيد أعداء ويتسلح ليتقوى عليها ويَتَحَصَّنَ منها وضدها في معركة لا بد واقعة معها. افترضوا أنها إسرائيل، فهدده تجار السلاح بوقف إمداده بالسلاح لكنه طمأنهم وقدم لهم ضمانات بعدم متابعته للشأن الإسرائيلي فارتاحوا لكنهم عادوا وافترضوا بأنه يتسلح لكي يمول حركات التحرير في العالم بالعتاد والسلاح، فقدم لهم الضمانات بأن الأنظمة الاستبدادية وجبروت الحكام وطغيانهم لا تعنيه ما دام لا يقرأ الشعر...

وما كاد تجار السلاح يزفرون قلقهم حتى داهم مسامعهم صدى صواريخهم يقصف بها القذافي شعبه، عدوه الذي لم يخطر لهم على بال.

- من أين جاءنا **نيرون** هذا؟
- من "**نقابة الرؤساء العرب**" حيث يتخرج مجانين الحكم!...
- جنون العظمة هو مرضهم، جميعا. كلهم يهرولون لتثبيت سلطتهم في الداخل من خلال تثبيت شعبيتهم في الخارج!...
- هذا يدعم المتمردين حيثما كانوا في العالم ليتقوي بهم حين يتمرد عليه أهاليه في الداخل!...
- وذاك يبنى بمال الشعب أعلى بناية في العالم ويسميها باسمه كي يدخل وإياها كتاب غينيس للأرقام القياسية!...
- وذلك يحرص على راحة السياح الأجانب حتى يروجوا له في بلدانهم ويساهموا في التخفيف من ضغط حكومات بلدانهم عليه!...
- ورابع يروج لنفسه كمصمم للمدفع العملاق الذي سيدافع عن البلاد من الأعداء ولو كانوا قادمين من كوكب **بلوتو**!...
- وخامس دخل مغامرات بناء ناطحات السحاب والأبراج والمسلات حتى ينتبه العابرون في أعالي البحار البعيدة إلى وجوده ووجود شعبه الذي لا يتعدى مجموع سكانه أصابع اليد الواحدة!...

ترعرع **العقيد الثائر** بين أحضان مجتمع عربي ثقافته "**جنون العظمة**"...

هذا فهمه في حينه وسبح في تياره.

لكنه حين بدأ جيله في التساقط قطعة قطعة، لم يفهم شيئا وحاول السباحة ضد التيار فتوقف العالم على جانب النهر للضحك على محاولاته اليائسة للنجاة من هياج السيل الجارف دون طوق نجاة، والتسلي بحركاته البهلوانية في سيرك لا يكتفي فيه المتفرجون بالضحك على البهلوان...

الفصل الرابع

عندما عاد العقيد من نزهة في الصحراء، علم بأن جاره في الحكم على اليسار قد هرب من كرسيه وقصره. ولما رجع من رحلة استجمام في البحر، علم أيضا بأن جاره في الحكم على اليمين قد هرب من كرسيه وقصره. ولما سمع العقيد باستعداد شعبه للخروج إلى الشارع في تظاهرات شعبية عارمة مطالبين بالديمقراطية، تساءل:
- "**ألم يدرسوهم "الكتاب الأخضر" في المدارس خلال الأربعين سنة من حكمي؟!**

آنئذ فقط، **العقيد** أيقن بأن "**الكتاب الأخضر**" رهان ضعيف، فعمد إلى استثمار الكتاب الآخر طالبا من أئمة البلاد الفتوى ب"**تحريم المظاهرات**".

رفض الأئمة له طلبه لكن رفضهم لم يحبطه إذ توجه مباشرة إلى الفتاوي الجاهزة المراكمة عبر التاريخ لدى الجيران والتي تُحَرِّمُ الخروج عن البيعة التي في عنقهم اتجاه الحاكم وتُنَبِّهُ لخطورة الفتنة. ثم بدأ يرسل، إلى الهواتف النقالة، رسائل قصيرة كتب فيها: "**العلامة الجليل الشيخ العارف بالله معمر بن عمرو العامري يفتي بحرمة عصيان الحاكم وإذكاء الفتنة النائمة في الرؤوس**"...

ظل يتساءل لمدة طويلة عن إمكانية إزاحة الشعب لرئيس حَكَمَهُمْ منذ كانوا في بطون أمهاتهم قبل أن يعلم بأن شعبه ينوي المضي في نفس الطريق للإطاحة به وبأنه حدد تاريخ "**الخميس 17 فبراير**" موعدا لانطلاق الثورة، فارتعدت أوصال العقيد الذي أمر بتخصيص الأيام السابقة لذلك التاريخ للتظاهرات المؤيدة له والمتوعدة بمتظاهري يوم الخميس الموعود وهو يهمهم:
- "**حبات الطماطم اللعينة هذه على عربة بائع متجول تونسي أججت ثورة على يميني وأخرى على يساري وثالثة بين شعبي وقفزت علينا واشتعلت في اليمن والبحرين وسوريا... مناقص من هذه ماطيشة!**"

ثم انقض على ميكروفون الإذاعة قرب وسادته في غرفة نومه وضغط على الزر فربط الاتصال بينه وبين الأقمار الاصطناعية:
- "أنا **معمر أبو منيار القذافي**، قائد **ثورة الفاتح** المجيدة وضامن خلودها وحارسها الوفي، أهيب باللجان الشعبية لسحب تعويضاتها مسبقا للمشاركة في تظاهرة الغد وسحب مناشير الشعارات لحفظها وترديدها على مسامع أعداء الله والوطن. احملوا في تظاهرتكم "**القرآن**" في يمناكم **و"الكتاب الأخضر"** في يسراكم حتى تضمنوا النصر الأكبر والفوز الأعظم. احملوا الكتابين معا حتى إذا ما خذلنا "**القرآن**"، استقوينا ب "**الكتاب الأخضر**"...

ثم مُوَجّها غضبه إلى الثوار:
- "خذوا الشعب فلن يؤثر ذلك في موازين القوى. أنا معي الملايين ليس من الداخل فحسب بل من كل ربوع العالم. لذلك، فجنودي أعزاء علي ولن أغامر بهم في معارك حامية الوطيس، وقبيلتي عزيزة علي ولن أغامر بها في ساحات الوغى. سأشتري لخصومي من يذبحونهم كالشياه ويسقطونهم كالصراصير. سأشتري لخصومي مرتزقة يقفون على الحدود ولا ينتظرون غير موافقتي ليضعوا القبعات الصُّفْر على رؤوسهم ويشرعوا في العمل بالضرب على الرأس والصدر والقفا. ولهذا الهدف، لن استخدم لا **البلطجية** كمصر ولا **القبيلة** كاليمن ولا **الشرطة** كتونس ولا **الشّبِّيحَة** كسوريا... أنا زعيم مبدع وهذه آخر إبداعاتي: **المرتزقة**"...

كان البث الإذاعي مباشرا ومفاجئا ومع ذلك استحوذ على الاهتمام وحقق نسبة عالية من المتابعة.

عسكريان متقاعدان على عتبة بابهما انتظرا طويلا حتى انتهى العقيد من خطابه ليعقبا على ما ورد فيه من هجوم:
- لماذا لا يهتم العالم بنا؟
- إذا كان القذافي عدو العالم، فعلى الأقل يجب أن نكون نحن بديلا عنه!
- العالم لا يمكنه أن يتحرك إلا عند تلويحنا بسلاح النفط. وقد هددت بعض القبائل بوقف تصدير النفط إذا لم يضغط المجتمع الدولي على الطاغية كي يوقف جرائمه.
- المجازر ترتكب والقتلى بالآلاف...
- على ماذا يعتمد **القذافي؟**
- على ثلاث: **الكتائب الأمنية،** على طريقة المماليك، وهي لا تدين بالولاء لمؤسسة من مؤسسات الجيش وإنما تدين بالطاعة العمياء **للقذافي** وعائلته؛ وعلى **اللجان الثورية وهي** بوليس وحزب في آن معا مهمتها قمع المتظاهرين واغتيال المعارضين وتفجير الطائرات. وأخيرا، **المرتزقة** ممن يبيعون خدماتهم وحياتهم لقاء المال الوفير والعقيد يعتبر المرتزقة كشعب بديل عنا نظرا للولاء الذي يكنه له، ولاء الكلب لسيده...
- يبدو أن العقيد قد أيقن مبكرا بأنه سيبقى لوحده في ساعة الحقيقة حين يواجه شعبه فبدأ يصنع شعبا طيعا بديلا يختاره بيده ويصنعه حسب منطق "**الاختصاص**": **مرتزقة الهتاف والتصفيق** القادمين من الملاجئ الخيرية، و**مرتزقة الرقص والغناء** من الجنود الليبيين القادمين من التكنات بعدما تجردوا من ملابسهم العسكرية، و**مرتزقة الإعلام والترويج** من اللجان الثورية، و**مرتزقة الحرب والقتل والتقتيل** من المرتزقة القادمين من بلدان العالم... حتى إذا ما ُطلِبَ منه أن يوقف القتال بفعل موت رجالاته، قال بأنه ليس له رجال في المعارك وأن كل رجالاته انفصلوا عنه؛ فهؤلاء مجرد مرتزقة يتقاضون أجورا لقاء موتهم. فليكن لهم ما أرادوا! أما هو، فيكفيه فخرا بأنه سيكون أول حاكم في التاريخ يستعين بالمرتزقة ضد شعبه. وبهذه الطريقة، لن يشبهه أحد من مؤرخي المستقبل لا **بنيرون** ولا **بكاليغولا** ولا **بكركللا** وإنما سيدخل التاريخ باسمه الكامل غير منقوص: "**معمر القذافي**"!"...
- المرتزقة قادمون من الخارج ليعيشوا على مال الشعب ويقتلوا أبناء الشعب. وفوق كل ذلك، يأخذون الجنسية ويصبحون شعبا موازيا لنا أو ربما مع الوقت صاروا شعبا بديلا لنا!
- لذلك، فالعقيد يريد تحويل الثورة إلى حرب بين "**الشعب الأصلي**" و"**الشعب البديل**"!...
- سيصبح الأمر مثيرا للسخرية!
- تماما كما سيصبح مثيرا لمعاودة حمل السلاح ومقاومة هذا المجنون! أين "**إعادة السلطة للشعب**" التي كان يتشذق بها يوم انقلب على سيده؟!

في ذكرى يوم "**إعادة السلطة للشعب**"، كان العقيد يحاول بطائرات شعبه التي يقودها المرتزقة "**استرجاع مناطق حررها شعبه منه**" بينما كان الشعب، في حشود عظيمة، يحتفل بنفس الذكرى في نفس اليوم ولكن بحرق "**الكتاب الأخضر**" وصور العقيد وعلمه وحيد اللون، ويشعلون النار في مقرات حزب اللجان الشعبية ويهدمون مجسمات "**الكتاب الأخضر**" مهللين:
- "**الشهيد يريد إسقاط النظام!**"...
- **"دم الشهداء، ما يسيل هباء!"...**

من عل، بين سحب فبراير الكئيبة، كانت الطائرات تقصف المتظاهرين بلا هوادة، مرسلة اليُتْم إلى بيوت المتظاهرين والحيرة إلى عقول الشاهدين من المتسائلين عن طبيعة الجثث المفحمة على الطرقات:
- هل هي هياكل عظمية متفحمة؟!...
- كيف يصير المرء هيكلا عظميا في ثوان؟!...
- ما طبيعة المواد التي تلقيها الطائرات كي تحيل المرء إلى هيكل عظمي متآكل؟!...
- الهياكل تبدو وكأنها أخرجت للتو من قبر من مقابر القرن الماضي!...
- كلا ! هذا أخي وهذا جاري وهذا صديق طفولتي!...
- أنا أعرف هؤلاء: أعرف أسماءهم وعناوينهم واهتماماتهم ومستوياتهم الدراسية وبرامج عطلهم الربيعية القادمة!...

- أنا أيضا أعرفهم واحدا واحدا!...

بعد كل غارة من الجو، كانت كتائب العقيد تخرج من تحت الأرض لمسح عبارات الثورة المشخبطة على جدران المدن، وإنزال الأعلام المتعددة الألوان لترفع محلها العلم الوحيد اللون، وتسوي بالجرافة قبور الشهداء بالأرض، وتجمع الجثث الملقاة على الشوارع وتنظف الطرقات من آثار الدماء، وتهاجم المستشفيات وتقتل الجرحى وتأخذهم في سيارات الإسعاف رفقة الموتى إلى جهات مجهولة خوفا من وصول لجان تحقيق دولية على حين غرة...

بعدما وصلت الإحصائيات حول عدد الشهداء وعددها بالآلاف إلى مسامع الأهالي، تعجبوا:
- هل قتلنا معمر جميعا؟!...
- لكل شيء ثمن. ومهما بلغ عدد الشهداء فثمن الحرية التي نشتريها أرخص من ثمن الذل الذي عشناه تحت حذاء هذا العسكري المجنون، نيرون العصر!...

في بيته، جمع القائد ركائز سلطته ورموزها للتباحث في موضوع أزمة الوضع في البلاد وأعطى في البداية الكلمة لابنه البكر **سيف الإسلام**، مستشاره في الوساطة مع الداخل؛ ثم لابنه **عز العرب**، مستشاره في الوساطة مع الشرق؛ ومن بعده لابنه **حنبعل**، مستشاره في الوساطة مع الشمال؛ فابنه **الساعدي**، مستشاره في الوساطة مع الجنوب؛ ثم لابنته **عائشة**، مستشارته في الوساطة مع الغرب؛ ومن بعدها لابنه **المعتصم**، مستشاره في الوساطة مع الخصوم؛ ثم لابنه **خميس**، مستشاره في الوساطة مع الأعداء...

وحين انتهى الاجتماع الأول في البيت، خرج على متن "**التّكْتُك**" إلى قاعة المؤتمرات حيث رن بنفسه جرس الاجتماع الثاني الخاص بمناقشة خطورة الوضع في البلاد، فتقاطر عليه ركائز حكمه كان أولهم **عبد المُذل عشاق الدم** ثم **عبد الضَّار سيال الدم** ومن ورائه **عبد المنتقم شراب الدم** ومن بعده **عبد القهار مصاص الدم** ثم **عبد المميت قذاف الدم...**

كانت جلسة خفيفة تناولوا خلالها وجبة خفيفة عاد عقبها العقيد إلى قصره ليخبر ابنه البكر بالقرار الأخير:
"إن أرصدتنا في بنوك العالم قد جمدت، و ممتلكاتنا صودرت، والبوليس الدولي يطلبنا لتقديمنا للمحكمة الجنائية... فليس لنا، والله، غير البقاء في هذا البلاد. اِلْقِ خطابا، يا سيف الإسلام، وقل للجماهير: سنحكمكم وتستمر الحياة وإلا سندخل جميعا دوامة حرب أهلية طاحنة يكون الحَكم بعدها لمن نجا من القتل والتقتيل!..."

الفصل الخامس

في كبرى ميادين العاصمة، نصب الثوار شاشات عملاقة لمتابعة خطاب **ابن العقيد** مستبشرين بأنه خطاب الوداع والتنحي وبأن الأبن سيعلن تنحي الأب عن كرسي الحكم حقنا للدماء. لذلك، هتفوا منتشين:
- "تونس أسقطت نظامها في **ثمانية وعشرين** يوما ومصر في **ثمانية عشر** يوما. أما نحن، فقد أسقطنا الطاغية في **أربعة** أيام**!** تحيا الثورة الليبية**!** الطاغية هرب وابنه المعارض لنظامه سيلقي خطابا يعلن فيه تنحّي والده عن الحكم**!**"...

عم الصمت ساحات البلاد وبدأ ابن أبيه يدور في كرسيه الدوار أمام الكاميرا ينتظر أول فكرة يفتتح بها الخطاب. وحين تأخرت الفكرة وطال دورانه في كرسيه، جرب أن يطيل سبابته في اتجاه الجماهير خلف الشاشة عسى الإيماءة تعجل بكسر الجمود الذي تملكه فجأة لحظة تشغيل الكاميرا فكان:

"**لن نترك السلطة لهذه الأسباب**": خلايا مسلحة دخيلة عبرت الحدود لإشاعة الفتن، والفوضى تعم البلد أبطالها مدمنو أقراص الهلوسة، ومنحرفون سيرغمون البلد على خسارة الشركات التي عقدت معنا صفقات تاريخية لاستيراد النفط. ليس هذا فحسب بل إن المخربين ينوون تفكيك ليبيا إلى دويلات من خلال حرب أهلية قادمة. ولذلك، فنحن سنستعمل القوة الرادعة لأننا لا زلنا أقوياء ولن نرحم في ذلك أحدا. ستسير أنهر من الدماء. فإما نحن وإما المحرقة**!** وَالِدِي، **معمر القذافي الرمز**، لا زال هنا ينتظر جوابكم وانضباطكم وهو لن يهرب ولن يتخلى عن مسؤولياته التاريخية. فالزعيم القائد الخالد هنا عاش وهنا سيبقى وهنا سيموت وهنا سيدفن وهنا سيعظم إلى أبد الآبدين"...

حالات إغماء بدأت تُسْقِطُ الواقفين أمام الشاشات العملاقة واحدا واحدا بعد سماع الوعد والوعيد. أما من حافظوا على وعيهم، فقد بدؤوا برشق صورة **ابن أبيه** على الشاشة العملاقة بالنعال والأحذية، متسائلين:
- بأي صفة يتكلم **ابن أبيه؟**
- هو كان يقود معارضة ضد أبيه؟
- لماذا هو الآن يلقي خطابا نيابة عنه؟**!**
- هل سقط القناع أم سقط النظام أم سقط الوهم؟...

على شاشة التلفاز، شاهد ابن أبيه ، لأول مرة في حياته، الشعب يقذفه بالأحذية وهو يلقي خطابه على الشاشات العملاقة في ساحات البلاد العمومية، فقال الابن للأب:
- لقد قتلتني، يا أبي !
- اعتقدت بأنك ستكون صبورا صبر **إسماعيل الذبيح** على سكين أبيه **إبراهيم الخليل!**
- **إبراهيم الخليل** لم يقتل أبنه وإنما اختبره. أما أنت، فقد اختبرتني وقتلتني، يا أبي**!**...
- إنه ليس قتلا، بل تضحية، شهادة، عمل فدائي... كن إيجابيا، يا ولدي**!**
- كان من الأجدى، يا أبي، أن تخطب في الناس أنت وتعدهم بنفسك وتتوعدهم بما تراه يليق بك وبهم حتى إذا ما ساءت الأمور، تدخلت أنا بالصلح مستثمرا الصورة الإيجابية التي رَسَمْتَهَا لي طيلة السنين الماضية حتى ترسخت في وجدان الجماهير. وبذلك، لن ندع للأجانب مجالا للتدخل أو اللعب**!**...
- يكفي، يا ولدي. لقد عشنا، على أرض الواقع ولمدة أربعين عاما، ما يحلم به الناس حتى في نومهم. أما الآن، فقد دقت ساعة الرحيل. لكن هل تعتقد بأنني سأرحل لوحدي. إننا أسرة حاكمة. فإذا بقيت، سيبقى معي جميع أفراد أسرتي؛ وإذا رحلت،

سيرحل معي الجميع؛ وإذا مت، سيموت معي الجميع؛ وإذا انتحرت، سينتحر معي الجميع: زوجة وخليلات وأبناء شرعيين وغير شرعيين وأقارب وأتباع ومرتزقة!...

ولما رآى القائد ابنه قد انزوى على الأرضية في الزاوية البعيدة من الغرفة معانقا بكلتي يديه ركبتيه وهو يبكي، طمأنه:
- حسنا، يا صغيري. لن تلقي خطابا بعد اليوم. وأعدك بأن أبدأ سلسلة الخطب ابتداء من نهاية هذا الأسبوع. هل هذا يعيد البسمة لمحياك؟

وحين رأى الدمع في مقلتي انه المنهار على الأرض، أضاف:

- تابعني، إذن، على شاشة التلفاز...

الفصل السادس

«أيها الناس، إن الثورة تحدث مرة واحدة في تاريخ الأمم وقد وقعت وكنتم، أنتم أو آباؤكم أو أجدادكم، من قام بها عام نزول الإنسان لأول مرة على سطح القمر حيث سمع رائد الفضاء **لويس آرمسترونغ** وزميله **نيل يانغ** وهما خارج كوكب الأرض زغاريد فرح جداتكم أو أمهاتكم أو زيجاتكم أو أخواتكم أو ربما بناتكم. واليوم، بعد أكثر من أربعين عاما، تريدون تكرار نفس التجربة؟!...

الثورة تقوم مرة واحدة وقد قامت في الفاتح من سبتمبر وانتهى التاريخ ولم يعد ثمة مجال لا للثورات ولا للاختلاف. لكم "**الكتاب الأخضر**" ففيه نواميس الكون.

فعن أي ثورة جديدة تتحدثون؟

أنتم أصلا ثوار والعالم كلهم يستلهم تجربتكم الثورية...

لقد كنتم دائما ثوارا. هذا يعرفه العالم دون الحاجة لخروجكم للتظاهر في الشوارع...

أنتم ثوار. أنتم صانعو مجد **ثورة الفاتح** العظيمة. هذه حقيقة تاريخية. أما إذا ما فضلتم رفض شرف الانتساب إليها، ففي هذه الحالة سآخذ ذلك الشرف لوحدي وسأنسبه لنفسي. وبذلك، ستصبح الثورة الوحيدة الممكنة هي تلك التي قمت أنا بها وانتهى الأمر ولم يعد ثمة مجال لتكرار التجربة فالتاريخ لا يكرر نفسه. أنا من ابتكر "**ثورة الغضب**" وأنا من سمى الثوار ب"**الغاضبين**" وأنا "**الثائر الأكبر**"!

الثورة قمت بها قبل أربعين عاما ودعمت حركات التحرير في العالم وأنجحت ثورات هنا وهناك وهنالك. وبذلك، صرت مع **ثوار الخارج** حيثما كانوا وضد **ثوار الداخل** كيفما كانوا. أنا هنا آخر الثوار. الثورة هنا حدثت وانتهى التاريخ. لا مجال للعب بالألفاظ واختزال الثورة في تغيير رئيس برئيس. أنا لست رئيسا: أنا زعيم ثورة. أنا لا منصب لي. ولذلك، لا يمكنني التنحي. فأنا مقاتل ثائر وسأدافع عن ثورتي إلى آخر رجل من رجالي. أنا ليس لدي سوى بندقيتي. سأُقَاتِلُكُم وأَقْتُلُكُمْ وأُقَـَتِّلُكُمْ جميعا. سأحرق ليبيا وسأسيطر على الموقف ولو في بحر من الدماء فأنا الشعب أما أنتم فمجرد متآمرين على الشعب.

أتقلدون ثورات جيرانكم؟

جيرانكم لم يعرفوا، قبل هذا العام، ثورة عبر كل مراحل تاريخهم. ثم إن ثوراتهم جاءت لتغيير رئيس برئيس وتبديل حزب بحزب... أما هنا، فلا توجد أحزاب ولا يوجد رئيس. هنا، الشعب هو الذي يحكم. ولا يمكن لأحد أن يثور على الشعب. لا يمكن لأحد أن يثور على نفسه إلا إذا كان مجنونا أو مدمن حبوب هلوسة.

ثورات جيرانكم هي ثورات على سياسيين ومحترفي السياسة. أما ما تسمونها أنتم "**ثورتكم**" هنا، فهي **ثورة على ثوار!** وهذا أمر خطير. وحدهم القتلى المحتملين من سيفسر معنى "**الخطورة**" التي أتحدث عنها لأنه لا أحد منا سيقبل لا بالتوافق ولا بالتنحي ولا بالهزيمة...

ما كنت أعلم بأنني أحكم شعبا كهذا؟!

شعب يثور على نفسه!

إذا كنتم ثائرون على أنفسكم، فلماذا تخرجون إلى الشوارع وتهاجمون المؤسسات وتحرقون البنايات؟!

إن من يثور على نفسه، يتحلى بنَفَسِ الصوفية والزهاد والنساك ويعكف على إصلاح ما فسدَ في نفسه وتنمية ما عَابَ من شخصيته. أما الخروج للشارع لإشعار الآخرين بأن المرء ثائر على نفسه، فهذا ما لا يمكن أن يقوم به إلا مدمنو أقراص الهلوسة!

فاسمعوا، إذن، كلامي الأخير.

أنا هنا لأحكمكم فوصفة طبيبي تقرن دوائي بحكمي لكم وتربط شفائي بطاعتكم لي. ولذلك، فأنا لا أتوقع من شعب حكمته أربعين عاما أن يرجعني إلى نقطة الصفر، إلى جنوني. أنا مصاب بجنون العظمة والسلطة هي دوائي ومُسَكّن دائي. لذلك، فأنا أحذركم من المساس بدوائي وإلا فسترون وحشا كاسرا. فإما أن تقفوا معي فتستمر الحياة أو أن تتكالبوا علي وآنذاك سأقتلكم جميعا حيثما اختبأتم وسأرجمكم بكل ما أملك من أسلحة ضد الجدران وراء ظهوركم وطبقات الأرض تحت أرجلكم. لن أرحمكم إذا ما خالفتموني.

فمع من أنتم؟

مع الزعيم القائد العظيم الخالد؟

أم مع وهم الثورات العربية الخادع؟

إن من يتوقع تضامنا من الخارج مع ثورته، فهو واهم: صمت العرب مضمون مادام ما يحدث لي سيحدث لهم، وصمت الجيران سأشتريه بالنفط مقابل التواطؤ، والموقف الدولي في جيبي...

فمع من أنتم؟

أنا ولدت لأحكم وحين تأخرت أمنيتي، جننت ودخلت مصحة "**عين شمس**" فرع **جنون العظمة**. أنا ولدت لأحكم وأنتم وُجدتم لتأييدي وموالاتي ونصرتي. ولأن القدر جمعنا، فإننا لن نفترق ولو احترق كل البلد! سنبقى على هذه السفينة التي وجدنا على ظهرها. فإما النجاة وإما الغرق ولا حقّ لأحد في الفرار. لا حقّ لأحد في الخيانة. أنا الوطن، فدافعوا عني بأعراضكم ونسلكم وحياتكم وأنا أضمن لكم الخلود ودخول التاريخ!

اسمي، كما تعرفون ذلك جيدا، هو **معمر** ومعناها ليس فقط "**طويل العمر بين أسرته في بيته**" ولكن أيضا "**طويل العمر بين شعبه على كرسي الحكم وبدعواتكم سأصبح ميتوشالح وسأعمر طويلا وسأعيش ألف سنة**" كما عاش المعمرون من الأسلاف. فلماذا تغارون من قدري؟ أتثورون علي بدافع الغيرة من طول عمري وطول بقائي على الكرسي؟!

أنا لست **نيرون** العربي، أنا معمر **القذافي**. فكما ذكر التاريخ طويلا "**نيرون**"، عليه أن يذكر اسم **معمر القذافي** طويلا. ولمن سيقاوم دخولي التاريخ من بابه العريض عليه أن يقاوم جموحي وأوله هجومي على شعبي بجيوش **المرتزقة** قتلا وتنكيلا. هل فعل هذا أحد قبلي؟...

الليلة، ستُنْتَهَكُ حرمات البيوت!

الليلة ليلة الزحف، الزحف في كل الاتجاهات: زنقةً زنقةً، داراً داراً، غرفةً غرفةً، فرداً فرداً!...

الليلة ليلة الزحف عليكم، أيها الجرذان!...

سنمسككم واحدا واحدا!

لتختبئ الجرذان وليرقص الأنصار في الشوارع ويغنوا ويستعدوا لقتل الجرذان وبقر بطونهم وحرق جثثهم!

وإنه لزحف حتى النصر!»

الفصل السابع

عاد العقيد على متن "**التُّكْتُك**" إلى قصره فوجد ابنه لا زال على أرضية الغرفة معانقا ركبتيه فمسح بيده على رأسه معيدا لوجهه بشاشته قائلا له:
- أرأيت كيف يكون إلقاء الخطب، يا بني؟
- ألم يكن إلقائي أنا موفقا، يا أبت؟
- كيف يمكنه أن يكون موفقا وأنت، طول مدة الخطاب، كان كل همك هو وضعية ربطة العنق وإيماءاتك ووضعية جلوسك ولغة جسدك؟ لقد كنت متوترا وبدا ذلك واضحا من خلال دورانك في مكانك على الكرسي الدوار حتى أنني خشيت أن ينزلق بك الكرسي فتبتعد عن الكاميرا وترتطم بالحائط!...
- إذا كان الأمر كذلك، فسأتخلى لك، من الآن فصاعدا، عن الخطب وسأكتفي باللقاءات الصحفية حيث لن أواجه شعبا مسلحا ولن يجد التوتر إلى أوصالي سبيلا...
- سأترك لك فرصة الظهور في اللقاءات الصحفية إذا لم تطاردك الأحذية على الشاشات العملاقة في الساحات العمومية ثانية...
- هل الأحذية تطارد ظهوري لوحدي على الشاشات العملاقة، يا أبت؟
- هذا ناتج عن ضعف شخصيتك وخفة وزنك و...
- ولكن ألا ترى الآن على هذه الفضائية الأجنبية عدد الأحذية التي ترشقك بها نفس الجماهير على نفس الشاشات العملاقة في نفس الساحات العمومية، يا أبت؟
- أكاد لا أصدق عيني!...

لم يصدق العقيد كيف قُذِفَ ابنه بالأحذية حين ظهر على الشاشات العملاقة في الساحات العمومية وهو الآن يستشيط غضبا لرؤية صورته هو أيضا تلقى نفس المصير وجن جنونه أكثر حين بدأت شاشات العالم تبث صوره العملاقة على الطرق السيارة يتسلقها الشباب ليمزقوها إربا إربا وهم يهتفون بموته ورحيله ويتحدونه أن يخرج للميادين العامة كي يخطب فيهم...

في نفس الآن، كان الهاتف الثابت على يمينه يرن وكان جرس الباب المجنون قبالته يزعق:
- آلو، الأخ القائد. هذا مبعوث الوطن للأمم المتحدة!
- أهلا بك!
- استمعت قبل قليل إلى خطابك وأود أن أشعرك بصداه هنا بين سفراء أمم الأرض.
- لست بحاجة لسماع الأصداء التي أعرفها مسبقا!
- الأخ القائد، إذا كنت تنفر من سماع الأصداء، فاستمع إلى كلامي كصديق العمر: تنح وجنب البلاد كارثة محدقة...
- أنا ليس لي منصب. أنا زعيم ثورة...
- هذا الكلام قله لغيري. أما أنا فصديق العمر. تنح، يا صديقي، فالوطن أكبر منا ولعنة الله على السلطة التي تجعل منا وحوشا!
- أنا الوطن ولا شيء أكبر مني. لا شيء يقف في وجه إرادتي. لا فقدان الشعب ولا فقدان الأصدقاء...
- حسنا، انس إذن اسمي وواجه الطوفان لوحدك!...
- عن أي طوفان تتحدث؟
- هم "**جايين لك، يا معمر! جايين لك!**"

ارتعدت أوصال العقيد لسماع العبارة الكابوسية ومرت أمام عينيه صور **قياصرة الرومان** الذين طَغَوا فَطُعِنُوا لخلاص الناس منهم يليهم **الملك السنوسي** ووراءه شهداء الثورة وما قبل الثورة فصاح **العقيد** بقوة المذعور:
- من أنتم؟!

فأجابه رجال دبلوماسيته الواقفين قبالته وراء مكتبه والقادمين من كل بلدان العالم:
- نحن سفراؤك، أيها القائد!

انتبه إليهم فجأة وانتابه الذهول لعددهم المهول فصاح في وجههم:
- وزرائي وعساكري في الداخل يفرون إلى الخارج، وسفرائي وممثلي في الخارج يهرولون إلي دون أمر مني!
- لم نأت بمحض إرادتنا، أيها القائد !
- وبإرادة من تتحركون، أيها العرائس؟!
- لقد طردتنا أمم الأرض جميعها...
- من طردكم؟
- كل بلدان العالم، أيها القائد، احتجاجا على خطابك الأخير.
- وما العيب في خطابي الأخير؟
- تصريحك بنيتك سحق الثورة والثوار بالأساليب العنيفة التي عددتها بأصابع يديك اليمنى واليسرى!...
- سيرى العالم كم هي ضعيفة إجراءاته الزجرية في حقي. سيقرأ العالم جوابي ابتداء من الغد عندما أسحق "**بنغازي**" كاسرة هيبتي بأفتك الأسلحة المحرمة وأقوى الغازات الحارقة!...

خرج العقيد للتو إلى الجنود وطلب منهم "**الزحف**" على "**بنغازي**" ومحوها من الخارطة فرفضوا لأنهم قلة وبلا غطاء جوي وسيكونون فريسة سهلة بين فكي الثوار... فقتلهم رميا بالرصاص وجردهم من ثيابهم وتركهم فريسة للنسور:
- "هذا ليس وقت التحليل ولستم مخولون للأمر. أنتم مجرد **بيادق** في يدي!"...

أدرك أن الخوف مستشر بين جنوده فجرد الطيارين من مظلاتهم وأمرهم بالإقلاع والتوجه رأسا نحو "**بنغازي**" لقصفها وتطهيرها من الرجس الذي أصابها فرفضوا له طلبه لأن التحليق دون مظلات يحرمهم من الحد الأدنى من احتمال العودة أحياء. فقتلهم رميا بالرصاص وجردهم من لباسهم وألقى بهم في البحر فريسة للأسماك التي أضحت معتادة على لحم "**المهاجرين السريين**" من أبناء الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط:
- "أنتم مأجورون. المال أخذتموه وحياتكم بعتموها لي ولا مجال للتردد الآن!"...

حين كان، بنفسه، ينظم صفوف الطيارين ويعدهم للانطلاق لحرق شعبه، سُلِّطَ عليه من يحرقه إذ صاح:
- "**من أنتم؟!**"

وبينما توالت على مسامعه الأسماء التي ترعبه في ليله وخلوته وكوابيسه، كان الجواب:
- "**نحن منفذو قرار الأمم المتحدة القاضي بتجريدك من أموالك ودك سقوف قصورك فوق رأسك وتقليم أظافرك وخلع أنيابك وثنيك عن حماقاتك!**"...

الفصل الثامن

في خلوته، مع زوجته، تنهد العقيد وقال:
- هل تعلمين، يا عزيزتي، بأن الأئمة، اليوم الجمعة، خطبوا في الناس فيما يشبه الاتفاق والتنسيق بينهم بأنني أنا **فرعون العصر** وبأن الله خلق التوازن قانونا للكون بحيث جعل لفرعون **الطاغية** زوجة **تقية** كما توهموا بأن لي، أنا **الفرعون الأخير**، زوجة **ورعة**. وهم الآن يراهنون على الانشقاق داخل أسرتنا الصغيرة والتحاقك، أنت، زوجتي وأم أولادي بالمقملين وذوي السوابق العدلية كما التحقت زوجة الفرعون بالموحدين الأوائل. أترين أي قوم كنت أحكم طيلة الأربعين عاما من عمري وحكمي؟!...

ولما لم تجب **صفية**، وجّه لها سؤالا مباشرا يخرجها من صمتها:
- ألم تلاحظي بأنه مباشرة بعد خطابي الأخير، بدأت أركان نظامي السياسي تتهاوى مع فرار ضباط الجيش والمسؤولين واستقالة الوزراء والسفراء؟ أتساءل: لماذا يتخلى عني الرفاق؟
- الرفاق كانوا إلى جانبك حين نعتت خصومك بالجرذان وصدقوك وقتلوا خصومك كما تقتل الجرذان.
- ما علاقة هذا بذاك؟ وما الذي تغير في الأمر؟
- لقد أيقنوا مع الزمن بأنك أنت الجرذ، وأنك لا تستطيع حتى الخروج من هذه السراديب تحت " **باب العزيزية**" لتتواصل مع حراسك وجنودك وخدمك!
- أيمكن، يا زوجتي، أن أكون أنا الجرذ وقد ألفت "**الكتاب الأخضر**" ودشنت النهر الصناعي العظيم وحكمت ليبيا لأكثر من أربعين عاما؟

اقتحم الحاجب خلوتهما جارا خيط ميكروفون مده للعقيد لربط الاتصال بينه وبين أحد أقطاب الثوار في برنامج سجالي مباشر على قناة أجنبية إذ قال الزعيم دون أن يعلم حتى موضوع البرنامج:
1- إنها حرب بين شرق البلاد وغربها!
2- بل هي حرب تحرير البلاد جميعها!
1- إنها حرب قبائل، حرب أهلية!
2- بل هي حرب بين الشعب والطاغية!
1- إنها حرب من أجل الثروة، من أجل النفط!
2- بل هي حرب من أجل الحرية!...

وبينما هو يرد على خصمه في الميكروفون، بدأت فرق عسكرية تلج المكان محملة بصينيات مملوءة بالشواهد والميداليات والأوسمة وسبائك الماس والذهب والفضة ثم فرقة ثانية وثالثة وعاشرة كل واحدة منها تجُرُّ وراءها أكياسا محشوة بالأوراق النقدية فهلل **العقيد**:
- هل يجازيني أحرار العالم على صمودي في وجه الجرذان والرعاع؟
- لا، أيها القائد. هذه الجوائز ليست لك وإنما هي من المرجوعات.
- ماذا تقصدون؟!
- المثقفون والمبدعون والمناضلون ممن وشحتهم فيما مضى بأوسمتك وأجزلت لهم العطاء من مالك، هم الآن يتنازلون لك عن اعترافك بهم وتكريمك لهم ويعيدون لك شواهدك وأوسمتك ومكافآتك وهداياك.... هذه مجرد الدفعة الأولى من

المرجوعات ولا زال هناك في الطريق طابور طويل من الحرس الذي الذي وضع السلاح جانبا ليتفرغ لحمل المرجوعات في الصينيات إلى "**أخوتك**"...

طلب القائد تركه لوحده مع الصينيات وهو ينوي الظفر بلحظة خلوة مع النفس إذ بدأ يتساءل:
- "هل سأتنحى عن الحكم وأنا لم أدخل التاريخ بعد؟ هل سأنتهي على كل الصُّعُدِ وأنا لا زلت في منتصف طريقي نحو باب **التاريخ؟!** "**كتابي الأخضر**" لم يدرس بعد في أي جامعة عالمية؟ أولادي لم يبزغ لأحدهم شأن؟ هل بعد اثنين وأربعين عاما، ستكون النتيجة هي **مزبلة التاريخ؟!**"

فكر العقيد في شن هجوم دبلوماسي أخير من خلال إرسال بعثات دبلوماسية جديدة إلى دول العالم لكن البعثات رجعت جميعها بجواب واحد:
- لقد انتهى نظامك!
- لقد انتهى عصرك!
- لقد سقطت شرعيتك!...

فاحتج القذافي:
- ولكنني لا زلت على قيد الحياة؟

التقط جريدة أجنبية على مكتبه ليقرأ الجواب على صفحاتها:
- لا يهم العالم موت الطاغية: ما يهم العالم هو حياة شعبه وخلود وطنه!

فصرخ:
- أنا الشعب وأنا الوطن! الحياة لي والخلود لي! أما أنتم فلستم غير عبدة مصالحكم. وهذا قراري الأخير: لن أرضى بكم شركاء مستقبلا!...

ثم عاد لمواصلة قراءة المقال على ذات الجريدة:
"شكل الليبيون مجلسا وطنيا بدأ للتو تواصله مع حكومات العالم بينما القذافي تحت الأرض في "**باب العزيزية**" يعد ضربات صواريخ الناتو فوق رأسه ويتابع عبر التلفاز الثوار يسحبون منه الشرعية ويضعونه في حكم المنتهي صلاحيته. فبدا العقيد في حالة شرود، غير مرغوب فيه، لا يمثل أحدا، مجرد مشاغب... لكنه بدأ ينتف شعره غضبا حين بدأت بنوك العالم تحول أرصدته إلى حساب المجلس الانتقالي لتسديد فواتير الدعم والتسليح وترفع علم خصومه على أسطح مكاتبه في بلدانها".

ألقى العقيد بالجريدة بعيدا، غير عابئ برجالاته ممن تحلقوا حوله للتو:
- "هل سيدفنني العالم وأنا حي بالطريقة التي تخيل بها ذلك الكاتب المغربي إحدى شخصياته القصصية في نص "**كل حياتنا للراحة وكل مماتنا للقلق**"؟ سأثبت للأوغاد بأنني لا زلت حيا. سيرون بأم أعينهم وسيتأكدون بأنني لست بالسهولة التي دُفِنَتْ بها شخصيات تلك القصة حية ترزق أو، بتعبير كاتبها، "**حية ترمش**"!

ثم تبدى له الموت بحروف تمليها صواريخ **الحلف الأطلسي** فوق رأسه ورآى نفسه يموت بمفرده. وفي عز التوتر، أوقف بضغطة زر البث التلفزيوني وارتجل خطابا يبث بالمباشر:

"أريد شعبي بقربي، أريد أن أحس بنبض شعبي. تعالوا ارقصوا أمامي. فإما أن نحيا معا وإما أن نموت معا. تعالوا، غنوا وارقصوا رقصتكم الأخيرة!

يا أحبائي، يا من لا يساوي **معمر القذافي** فردة حذاء من دونكم. تعالوا وغنوا وارقصوا في غرف نومي وأكلي وفي كل مكان في قصري. يا من تحبون **معمر القذافي** وتهتفون باسمه وتعرضون حياتهم للدفاع عنه: من يدافع عن الوطن، فإن الوطن

قد احترق تحت نيران طائرات العدو؛ ومن يدافع عن **معمر**، فإن **معمر** حي يرزق وسيظل حيّا مادام في الجو نسمة هواء تمد الكائنات بالحياة...

أنا باق ولو ضاعت كل ليبيا. اسمعوا شعبي الذي يحبني يصرخ: "**الله ومعمر وبس**"**!** خذوا ليبيا واحرقوها أما هم فيكفيهم أن يبقى ملهمهم على قيد الحياة كي يستمر قلبهم بالنبض والحياة...

أما أنتم، يا مغول العصر، فدمروا ما شئتم من بنايات واحرقوا ما شئتم من شجر وحجر لكنكم لن تدمروا **معمر** الصخرة الصلبة. أنا باق ما بقي الهواء والماء والتراب والنار. أنا باق ما دام الكون بحاجة لعناصره الأربعة...

ليبيا اليوم جمرة ولكنني هنا. أنا لازلت هنا وسأبقى هنا ولو احترقت كل ليبيا. احرقوا ليبيا لكنكم لن تحرقوني. أنا **معمر القذافي** المجد. لن يمكنكم حرق المجد مهما بلغت بكم الوقاحة والصفاقة ولكن يمكنكم حرق ليبيا.

احرقوا ليبيا وعبروا عن يأسكم وإحباطكم...

اقتلوا رجالي...

دمروا كتائبي...

لكنكم لن تصلوا إلي...

لن تظفروا بذلك الشرف ولو أحرقتم كل **أفريقيا**..."

الفصل التاسع

تحت أرضية قصره ب"**باب العزيزية**"، تمكنت العزلة من عقل العقيد ووجدانه فلم يعد حوله لا أصدقاء ولا رفاق ولا أصحاب ولا جلساء ولا ندماء. وحده هذا الحاجب ظل يؤنسه ويجيب على أسئلته:

- هل سأظل سجينا هنا في "**باب العزيزية**"؟
- أنت لست السجين. أنت السجان، أيها الأخ القائد!
- وأين هم سجنائي؟
- هم يزحفون في اتجاهنا.
- وهل سأظل هنا أنتظرهم؟
- ولكنك أنت من اخترت ذلك، أيها الأخ القائد!
- أنا أريد الخروج من هذا البئر فانظروا ما أنتم فاعلون. ابتكروا المقترحات والمبادرات والتخريجات. أنا أريد الخروج...
- ولكن خروجك من باب العزيزية يعني تخليك عن السلطة!
- السلطة هي مرضي، هي دائي. وأنا قضيت حياتي أبحث عن دواء، عن علاج، بدا لي الكرسي لمدة أربعين عاما علاجا لكنه الآن لم يكن سوى مُسَكّناً من المسكنات وربما لم يكن غبر حبة هلوسة وصلت بي اليوم إلى آخر مفعول السعادة التي تبشر بها...
- زمن التداوي مضى، أيها الأخ القائد، أما اليوم فالثوار يطالبون بحرقك حيّا!

فكر **العقيد** في الصعود إلى سطح الأرض كما صعد **لويس آرمسترونغ** إلى سطح القمر أربعين عاما قبل ورطته هذه، لكنه انتبه إلى أنه لا أمان على سطح ثكنة "**باب العزيزية**" التي تدكها فوق رأسه صواريخ **حلف شمال الاطلسي**. ولذلك، قرفص وبدأ يقارن بين **حكومة خصومه الانتقالية فوق الأرض** وهي تتنفس وتتحرك بحرية وبين **نظامه السياسي تحت الأرض** وهو يختنق وتتفكك أوصاله.

ثم بدأ يلاحظ بأن حوله معسكران: **معسكر شاب** يكونه أبناؤه ممن يريدون الحياة ويطلبون المنفى وعيش الشباب ولهو الشباب بالمال الوفير الذي جمعه لهم والدهم؛ و**معسكر ناضج** يريد القتال حتى الموت فداء للمبادئ وماء الوجه ويتحلق حوله مجرمو الحرب ممن تلطخت أيديهم بدماء الضحايا عبر السنين. وبين هذا وذاك، كانت القروش الأممية تقترب من الشاطئ الليبي محملة بالطائرات والصواريخ والجند والعتاد بينما كان القذافي يجلس أمام مكتبه لتحرير المبادرات السلمية وتقديمها لأصدقائه من رؤساء الدول كي يتبنوها ويضغطوا لتفعيلها لضمان خروجه من البلاد خروجا مشرفا.

في البداية، كان **العقيد** يحرر عشرات المبادرات ويرسلها لحكام العالم ثم يواظب على مواعيد نشرات الأخبار على المذياع لسماع الجواب. بهذه الطريقة، أمسى يحرر دزينة من الحلول ويبعثها إلى دزينة من الرؤساء والملوك وملوك الملوك ليتوسد هواتفه الخلوية ترقبا لسماع الجواب. ومع تمكن الملل منه، صار يحرر مبادرة واحدة في اليوم ويرسلها ثم ينساها.

مع الأيام، فقد **العقيد** الثقة في قدرة المبادرات على حل معضلته. عندئذ، دخل عليه كبير حراسه الشخصيين فوجده يلقي خطابا مباشرا من غرفة عملياته تحت الأرض في "**باب العزيزية**":

- **"افتحوا المخازن للشعب المسلح! دعوا الشعب يزحف على الجرذان والخونة! ازحفوا عليهم بالملايين! طهروا ليبيا من المقملين! إلى الأمام! لا رجوع! وإنه لزحف حتى النصر!"...**

انحنى الرجل على **العقيد** ووشوش له في أذنه بأن المساجد في كل أحياء العاصمة بدأت تكبر بشكل غريب يوحي بنوع من التنسيق مع جحافل الثوار المرابطة عند تخوم العاصمة بعدما أحكمت الطوق عليها و شددت الحصار على من فيها:
القذافي: المساجد دائما تكبر وتؤذن!...
مرافقه: لا، أيها القائد. التكبير الذي يحدث الآن يبدو وكأنه شفرة لجماهير العاصمة كي تخرج إلى الشوارع لتسهيل دخول الثوار القادمين من كل مدن البلاد...
القذافي: حسنا، اسكتوا أبواق المآذن!
مرافقه: وكيف السبيل إلى ذلك، أيها القائد؟ نحن لم نعد نتحكم في أي شيء. إن ما جئت من أجله ليس إخبارك باتخاذ قرار اتجاه أبواق المساجد وتكبير المكبرين وإنما جئت لمساعدتك على الفرار بجلدك قبل فوات الآوان!...
القذافي: الفرار؟!
مرافقه: لقد فر الجميع ولم يبق غيرك أنت وهذا الجهاز الإذاعي قرب مكتبك الذي تبث من خلاله خطبك، الآن. لقد فر الجميع ولم يبق حواليك سوى الجثث. لقد هَرَبَ من استطاع إلى الهرب سبيلا وهُرِّبَ من تعذر عليه الأمر!
القذافي: أأرحل وأترك ورائي إنجازاتي وممتلكاتي؟!
مرافقه: أيها القائد، دعها إنجازات يفخر بها بلدك وممتلكات يستفيد منها وطنك الذي أحببته وتفانيت في خدمته!
القذافي: أتود إقناعي بأوهامك وسذاجاتك بعدما هوى نظامي وصرنا مجرد رجلين؟!
مرافقه: أيها العقيد، اثنان وأربعون عاما وأنت تتوهم. أما الآن فقد آن الأوان لكي تتعقل. أنت لم تنجز شيئا على الإطلاق لهذا البلد ولا كان في يوم من الأيام فرد واحد من هذا الشعب يحبك ولا كان أحد من كتائبك مستعد للموت في سبيلك. وحدها المصلحة كانت تجمعنا والآن تشظت المصلحة وتناثرت شظاياها على الرمال الشاسعة لصحاري ليبيا. الآن، تشتت العِقْدُ ولم يبق ثمة شيء يجمعنا. إنها النهاية، أيها **العقيد**. فتعال معي لنخرج من هذا النفق...
القذافي: النهاية بهذه السرعة؟!
مرافقه: أية سرعة، أيها العقيد؟ ألا تذكر بأنك حكمت هذه الجحافل من الغاضبين لمدة تزيد عن الأربعين عاما؟!...
القذافي: هل بعد أربعين عاما، أخرج ذليلا صاغرا أحبو على يدي ورجلي خارجا من الأنفاق الصغرى نحو الأنفاق الكبرى؟!
مرافقه: أسرع الخطى، أيها العقيد. لم يعد ثمة وقت للحديث عن الألقاب. فلم يعد ثمة عقيد ولا قائد ولا زعيم ولا ملك ملوك إفريقيا... ألا تسمع الطلقات النارية المدوية والشعارات الثورية المقتربة؟ أسرع الخَطْوَ! أسرع!...
القذافي: مهلا، مهلا. انتظرني على الأقل حتى أحمل معي ذهبي ومالي وأحرق أثاثي كي لا يعرف الشعب حقيقة مسكني بعدما روجت بأنني أسكن في **خيمة** من وبر الإبل...
مرافقه: المهم هو نجاتك، أيها **العقيد**. أسرع الخَطْوَ!
القذافي: إذن، انتظرني حتى ألقي خطابا أخيرا ما بعده خطاب...
مرافقه: سيكون لك متسع من الوقت لإلقاء ما شئت من خطب شريطة بقائك على قيد الحياة. وهذا رهين بإسراعك في الخروج من هنا، أيها العقيد. هيا!...
القذافي: ومن سيستمع لخطبي إذا ما خرجت من قصري هذا؟
مرافقه: ليس مهما من سيسمعك. المهم هو أنه سيصبح بإمكانك ممارسة هوايتك المفضلة: إلقاء الخطب على الأثير من أي فضائية شئت. هذا هو المهم. وهذا ما أحثك على البقاء من أجله...
القذافي: قبل أربعين عاما غنت "**الأبواب**" أغنيتها الشهيرة "**إنها النهاية، يا صديقي!**" واليوم أشعر بأن هذه الأغنية كتبت ولحنت وأديت لاثنين فقط من رموز التاريخ: **أبو عبد الله الصغير ومعمر القذافي...**
مرافقه: هون على نفسك، أيها العقيد. لقد تغير العالم بسقوط نظامك وعليك التأقلم مع الظرف الجديد. هيا، أسرع الخَطْوَ!...

الفصل العاشر

جلس **العقيد** على كرسي هزاز في شرفة قصره بمدينة **سرت،** رشف من فنجان قهوته ثم سبح بنظره في صفرة الصحاري الممتدة نحو الأفق الأزرق في عناق سماوي-أرضي عَشِقَهُ منذ كان طفلا صغيرا. وانتبه فجأة إلى أنه حكم هذه المنطقة لمدة تزيد عن الأربعين عاما ولا زالت الصحراء صفراء قاحلة، ولا زال الأفق عاريا لا نهائيا في عريه، ولا زالت خرائط الطفولة على حالها فأفلتت منه دهشة أخمدها للتو:

- ألم أنجز شيئا خلال كل هذا العمر على كرسي الحكم؟!...

دون سابق إذن أو إشعار، اقتحم خلوته عسكري من المقاتلين الغرباء الذين بقوا معه لقاء المال الوفير. التفت إليه متوجسا. لقد صارت أخبار رجال المرتزقة كلها سيئة لأنهم يريدون العودة إلى ديارهم سالمين قبل وصول الثوار إلى رقابهم. لذلك فهم يكبرون الأخطار المحدقة تكبيرا يدرك العقيد حجم المبالغة فيه ولكنه يصدقها ويتحرك على خلفيتها طلبا لسلامته الجسدية:

- أيها الزعيم، المعركة ضارية عند مداخل المدينة والثوار يحاصرون المدينة من كل جانب ويتقدمون من الجهات الأربع...
- حسنا، لغموا المسالك ووزعوا القناصة على الأسطح العالية واستعدوا...
- ألن تسهر على توزيع الجنود بنفسك، أيها الزعيم؟
- لا، أنا سأسهر على كتابة رسالة لعائلتي في موضوع أهم. يمكنك أن تنصرف الآن....

انصرف الجندي دون تحية، تاركا **العقيد** يفتش في جيوبه عن ورقة وقلم. لم يجد العقيد في كل جيوبه غير علبة سجائر أمريكية ألقى بها إلى الشارع ثم قام من كرسيه الهزاز مبتعدا عن الشرفة نحو مكتبه حيث غاب ثلثا جسده وراء خشب المكتب بينما غاب الثلث الباقي في الورقة التي استلها من ملف مجاور ليكتب رسالة لعائلته:

"عائلتي العزيزة،

تحية طيبة

أما بعد،

فأرجو أن تصلكم هذه الرسالة وأنتم في منأى من كل سوء. كما أرجو أن تكونوا قد بدأتم التأقلم مع الوضع الجديد على الحدود.

لقد عشنا الحلم، يا أحبتي، وحان وقت الرحيل الذي لا بد منه. سنرحل جميعا ولكن ستكون لكل واحد منا وجهته:

عائشة، اذهبي مع عائلتك إلى الجزائر لتضعي حملك هناك وتجنبي تنشئة مولودك تنشئة الأبطال فذلك وهم زائف...

صفية، لا تتزوجي بعدي برجل يسحق صورتي بقدمه على حافة فراشك كل صباح عند يقظته.

هانيبال، اعتن بأمك وترحم على إخوتك وأبيك حين تتذكر بأنه كانت لك عائلة حولك.

محمد، حافظ على ثروة العائلة في الخارج...

واعلموا بأنه ستسبقكم شاحنة محملة بسبائك الذهب رشوة لمن يقف في وجهكم على الحدود. بعد ذلك، ستتبعكم شاحنات أخرى محملة بسبائك أخرى لتكون لكم مددا ولتعينكم على قضاء بقية العمر في بحبوحة لم تروا طيلة حياتكم غيرها. أما أنا فقد قررت الوفاء لروح السلومون في أعماق دواخلي: لقد قررت أن أموت هنا في مدينتي، سرت، كريما شريفا...

سأظل هنا وحيدا وسط المرتزقة ولو أن غربتي هنا لا يكفي لوصفها مداد الأرض"...

دخل جنود غرباء على العقيد ليطلبوا منه الانتقال إلى شقة أخرى أكثر أمانا نظرا للتقدم المستمر للثوار على الميدان فقطع انسيابية عواطفه ومشاعره ثم استدار جهتهم مستفسرا:

- ما الجديد؟
- الثوار يتقدمون بسرعة أكبر مما يمكن تصوره وهم على مشارف حي القصر!...
- وما العمل؟
- لا بد من تغيير إقامتك بالخروج من قصرك هذا إلى إقامة جديدة في شقة من شقق الأحياء الخلفية...
- ويحك، ألا تضرب الحساب لوشاية الوشاة من السكان الجيران؟!
- لم يبق في كل مدينة **سرت** أحد غيرك، أيها الزعيم. كل السكان فروا بجلدهم إلى المدن والقرى المجاورة طلبا للنجاة...
- شقة من تقترح كملجأ آمن، أيها العسكري؟...
- أنا لا أقترح شقة من الشقق، أيها الزعيم. كل الشقق في **سرت** فارغة. يكفي ركل إحداها لتقيم فيها قبل اقتراب الثوار...
- وإذا ما اقتربوا من منطقتها؟...
- آنئذ، سنركل باب شقة أخرى لتقيم أنت فيها. المهم هو سلامتك لأطول مدة ممكنة...
- لأطول مدة ممكنة؟!...

أومأ الجنود برؤوسهم، غير واعين على ما يبدو بالمقصود من السؤال، فأمرهم العقيد بالانصراف كي يتفرغ لإكمال الرسالة بين يديه:

"في الحقيقة، كنت دائما وحيدا. لكن وحدتي كانت تحفزني على حب الحياة. أما اليوم، فوحدتي تحفزني لارتكاب أشياء أخرى...

كل الشبيهين ممن استعملتهم طيلة حياتي في فترة الرفاه والرخاء هربوا اليوم من يدي في لحظات الشدة. ولذلك، فإن أول طلقة رصاص تطلق في الهواء ستصيبني حتما إذ لم تعد لي دروع الأمس البشرية التي كنت أتمتع بدفاعها عني...

لقد صرت أتنقل في الظلام وصارت الشمس ألدّ أعدائي.

وحدها الشمس تفضح تواجدي واتجاهاتي وتحركاتي...

صرت أكره الشمس كما صرت أغير باستمرار أماكن نومي. وأنا الآن أتساءل:

ما جدوى الحياة؟

عماذا أدافع؟

هل انتحر وحدي كما فعل هتلر؟

هل انتحر مع أعدائي كما فعل شمشون؟

هل انتحر مع شعبي كما فعل بانيبال؟

الحقيقة، أنه لو كانت لي قنبلة ذرية، لكنت انتحرت ونحرت معي الجرذان ممن يحسبهم القانون الدولي شعبا له علي حقوق...

اقتحم المكان زمرة من الجنود يستعجلون انتقال العقيد إلى شقة أخرى أكثر أمانا لأن الثوار أضحوا على مرمى حجر...

في الشقة الجديدة، واصل **العقيد** كتابة رسالته التي تطلبت منه أياما من التحرير وإعادة التحرير في فضاءات شقق **مفروشة** وأخرى **نصف مفروشة** وثالثة **عارية** ورابعة **مهدمة**... لكن أسلوبه في كتابة الرسالة المطولةظل ثابتا:

"سأكون صادقا إذا ما قلت بأنني على يقين بأنني سأخرج ناجيا من كل هذه المعارك والدسائس والمؤامرات...

نعم، سأخرج منها حيا بفضل المسدس الذهبي الذي لا يفارق حزامي. طبعا هو ليس مسدسا للدفاع عن النفس ولكنه محل التمائم السحرية الواقية من شرور الأشرار.

لقد سلك الطريق قبلي نابوليون بونابارت الذي كان يتمنطق بسيف من الألماس يتفاءل به إذ لم يخسر معركة واحدة من معاركه منذ أول يوم تحزم به. كان ذلك زمن السلاح الأبيض أما اليوم فزمن السلاح الناري. لذلك، أخذت فكرة نابليون ولم آخذ بأداته.

لقد صنع لي سحرة إفريقيا تميمة تقيني من الغدر مهما تعددت وتنوعت أسلحته، وأغمدوها في قلب مسدس ذهبي لا يصدأ كشعار "شمس الفاتح لا بد أن تغيب" الذي لا يبلى ولا يصدأ. ولما اقترحت اختبارا للتميمة كي يطمئن بالي، تم وضع

المسدس الذهبي كقلادة على عنق خرفان وماعز وبغال وحمير وجياد مرشحة للذبح. وعند تمرير شفرة السكين على نحورها، أبت الشفرة إراقة قطرة دم واحدة وظلت المواشي والبهائم المقترحة للذبح حية ترزق إلى يومنا هذا"...

اقتحمت المكان، هذه المرة، كوكبة كبيرة من الجنود الغرباء الذين انتشلوا **العقيد** من كرسيه وحملوه بالتناوب على ظهورهم مسرعين الخطى في دروب ضيقة ومهجورة يصفر الرصاص في فراغاتها يمينا ويسارا:

- إلى أين أنتم هاربون بي؟...
- لقد سقطت **سرت** بالكامل في يد الثوار لكنهم سيعرفون، مع شروق الشمس، بأهم استولوا على أرض محروقة...
- والوجهة الآن؟
- إلى أي مكان في الصحاري...

الفصل الحادي عشر

أدرك الليل موكب الهائمين في الصحاري المكشوفة لأعين الأعداء والمطاردين قرب ماسورة ضخمة.

توقفت كل سيارات الموكب وأسكتت كل المحركات وخرج كل من كان بداخلها بخطوات سريعة نحو الماسورة إلا العقيد الذي ظل يتأمل الدخان المتصاعد من سيجارته نحو السماء. وحين طلب أحدهم منه الالتحاق بهم داخل الماسورة للنوم سالما، بعيدا عن أعين الأقمار الاصطناعية في السماء وأعين المتلصصين على الأرض، علق العقيد ساخرا:
- أأدخل مجاري المياه لقضاء ليلتي كما تفعل الجرذان؟!

ضحك مرافقوه وسبقوه للاختباء داخل الماسورة وتغطية أرضيتها بمعاطفهم قبل أن ينادوا عليه ثانية لتبوئ المكانة التي يستحقها بينهم، حَبْوًا على يديْه ورجليْه...

داخل الماسورة، تمدد **العقيد** على ظهره ورفع يده فلامست أنامله سقف المكان وأدرك درجة انخفاض السقف في مسيرة عناده لكن دفء المكان وشخير مرافقيه كنس تأملاته وعجل بسفره إلى عوالم لا سقف لها ولا جدران قبل أن يستيقظ مذعورا على أصوات لا هي بأصوات صيادي الأرانب ولا صيادي الحجل ولا صيادي الخنازير البرية فتملكه الهلع والرعب وهو لا يرى غير الأرجل تجري خارج فوهة الماسورة في كل الاتجاهات ثم تعود إلى حيث تقف السيارات الرباعية الدفع التي خذلته خذلانا لم يضرب له حسابا ووشت به للثوار الذين تعرف عليهم من خلال لهجتهم ونبرة صوتهم...

أبطلت المفاجأة أطرافه ونسي بأن له مسدسا يمكنه الدفاع به عن نفسه وبأن حواليه مرافقون يمكنه الدفاع بهم عن نفسه...

طال فعل المفاجأة حتى أطل الثوار برؤوسهم داخل ماسورة المياه في الصحراء القاحلة، فانتبهوا لكونها غير سالكة. دققوا النظر فإذا بالعراقيل الجاثمة داخلها ليس لا أعشابا عالقة ولا أتربة موحلة...

استرعى الأمر فضولا زائدا.

ساندت عيونٌ إضافية مجهودات الثوار، الذين طوقوا مسلكي الماسورة، فراعها ما شاهدت: للأعشاب العالقة داخل الماسورة أرجلا وأيادي وأعين تضيء أو تعكس الضوء حين تُسَلَّطُ المصابيح عليها...

فكر أحدهم بإطلاق النار داخل الماسورة لمعرفة طبيعة الكائنات العالقة داخل الماسورة فجاءه الجواب:
- **"لا تطلقوا الرصاص فهنا يرتاح قائد ثورة الفاتح وأعوانه من رجالات الثورة العظيمة!"**...

أبطلت المفاجأة أيدي الثوار وعقدت لسانهم وهم يسمعون صوت الزعيم الذي ألفوه يخطب طيلة الأربعين عاما الماضية على المذياع مباشرة من قصره هو هناك الآن يكلمهم مباشرة من داخل ماسورة:
- لن أخرج من الماسورة إلا بضمانات!...
- ومن تكون حتى نعطيك ضمانات؟!...
- أنا **معمر القذافي** زعيم الثورة الليبية المجيدة وقائد الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى...

- **أمعمر القذافي** الذي يلبس الذهب ويتكئ على الذهب وينام فوق الذهب ويأكل في الذهب... ينام هنا في الصحاري داخل ماسورة؟!
- نعم، أنا هنا ولن أخرج من الماسورة إلا بضمانات!
- **أمعمر القذافي** الذي ينعت شعبه الثائر على الاستبداد والفساد بالجرذان... ينام كما تنام الفئران داخل ماسورة هنا في الصحاري؟!
- نعم، **معمر القذافي** هنا فأعطوه ضمانات على سلامته حتى يخرج من الماسورة!

فقد أحد الثوار صوابه وبدأ يصرخ طالبا التحاق الثوار به:
- الجرذ هنا! **معمر القذافي**، ها هو هنا! إنه هنا داخل الماسورة!...

أخيرا تحررت الأصابع وضغطت على الزناد فأطلقت أعيرة نارية في الهواء ابتهاجا بالصيد الثمين:
- اخرج، أيها الجرذ!...
- لن أخرج إلا بضمانات!...
- اخرج حيا وإلا سنخرجك قتيلا!
- أنا **معمر القذافي** القائد وأنا أقول لكم لن أخرج إلا بضمانات!...

أدخل أحد الشباب فوهة رشاشته داخل الماسورة وأطلق رصاصا على جنبات الماسورة فطفق **القذافي** يحبو على يديه ورجليه خارجا من الماسورة، طالبا العفو عند المقدرة وناسيا شروط ضمانات السلامة...

أمسك به أحدهم من شعر رأسه لجره خارج الماسورة فعلق الشعر بيده وبدا القذافي في أعين الثوار لأول مرة رجلا أصلعا:
- هل **معمر القذافي** الذي حكمنا لأربعين عاما كان أصلعا؟!
- هل كان **معمر القذافي** طيلة الأربعين عاما من حكمه علينا يضع كل هذا الثقل فوق رأسه؟!
- هل كان **معمر القذافي** طيلة كل هذه المدة على كرسي الحكم يمثل علينا ويكذب علينا حتى في مظهره؟!
- أيمكن أن يكون هذا الرجل مجرد شبيه **لمعمر القذافي** أراد بإلقائه بين أيدينا صرف النظر عن وجوده في مكان آخر من البلاد؟!...

أمسك أحد الثوار بالعقيد من أذنه وسحبه إلى أعلى ليجبره على الوقوف فانتبه الجميع إلى أن **معمر القذافي** المجرور من أذنه أقصر بكثير من **معمر القذافي** الذي جرهم من آذانهم لمدة أربعين عاما. فسأل أحد الشباب:
- ولكنك، طيلة الأربعين عاما على التلفاز، كنت تبدو أطول بكثير، يا **معمر**!
- لست مسؤولا عما كنت أبدو عليه. التمثلات هي تمثلاتكم وأنتم مسؤولون عنها!...
- ولكنك أنت من صنعها لنا، ألم تكن مسؤولا أبدا عما فعلت؟
- أنا لم أكن أفعل، أنا كنت أعمل؟...

تدخل ثائر آخر صارخا:
- لا تكلموا وحشا لا يجيد شيئا آخر غير الكلام أمام الناس وأمام الكاميرا. إنه لا يجيد غير الكلام والخطابة والسفسطة. هل يذكر أحدكم إنجازا حققه على الأرض؟! كل الحروب التي دخلها خسرها، والوحدة الوطنية التي حققها أسياده ها هو اليوم يهددها، والأطر التي أنجبها الوطن هجرها إلى غير رجعة... هذا "**وحش الكلام**". ألا تذكرون أننا حين دخلنا قصره في "**باب العزيزية**" وجدنا جهاز البث الإذاعي والتلفزي داخل غرفة نومه. لقد كان "**وحش الكلام**" يخطب وقتما شاء ويقول ما شاء كيفما شاء حين يجفو النوم عينيه؟! أنسيتم هذا وهو موضوع ثورتكم عليه؟!

لكن الفضول كان أقوى فتابع شاب آخر:
- هل كنت، أيها الجرذ، تقف على صناديق أم كنت ترتدي أحذية عالية الكعب عند إلقائك لخطبك خلال الأربعين عاما من حكمك؟!...

نهر شاب السائلين عن أسلوب إدارتهم للحديث مع **معمر** وانقض بعنف على رجله رافعا إياها للسماء:
- هذا هو الشيء الذي يقف عليه الجرذ كي يبدو لكم أعلى وأطول وأكبر...

اندهش الجميع لكون العقيد يرتدي حذاء عسكريا بكعب يقارب في علوه كعب أحذية النساء. فالتهبت فيهم نار الإهانة وانقض أحدهم على زوج الأحذية فنثرها من رجلي **القذافي** وبدأ يلطمه بهما وهو يصرخ ليسمع للشاب الذي تذكر للتو بأن له هاتفا نقالا يليق بتصوير لحظة تاريخية:
- صَوِّرْ، صَوِّرْ! هذا هو **معمر القذافي!** هذا هو معمر الجرذ!...

وفي هياج الهائجين، كان صوت يخاطب القذافي الذي لم يتوقف اللطم بالأحذية على وجهه:
- ألم نقل لك، أيها الجرذ، بأننا "**جايين لك**"؟!
- بلى، ولكنني كنت ضحية الكرسي الذي كان يفكر بي...
- ألم نكن صادقين في وعدنا، أيها الجرذ؟!
- بلى، واليوم آمنت برب **موسى** ورب **الثوار**...
- اسكت، أيها الجرذ. اليوم، إيمانك مردود عليك!...

انتبه أحدهم إلى أن القذافي قد يكون محتفظا بسلاح أبيض أو مسدس في جيب من جيوب لباسه العسكري فنبه الثوار الشباب إلى ضرورة تفتيش العقيد وسحب أي فرصة منه في الإفلات من أيديهم.

جذب أحدهم قميص العقيد بعنف فشلت المفاجأة يديه:
- كم نسخة من **معمر القذافي** كانت تدور في ليبيا؟!
- معمر الذي بين أيدينا أبيض اللون وقصير القامة وجسده بلا شعر لا على رأسه ولا على صدره ولا في أي مكان آخر من جسده؟!
- بل إن النسخة الحالية من معمر شقراء مثل سيجارة أمريكية!...
- هل كان **معمر القذافي** يخفي عنا كل هذا وهو يدعي ما ادعاه طيلة الأربعين عاما؟!
- لم يكن **معمر القذافي** طاغية فحسب وإنما كان له وجهان أيضا.
- لقد كان رجلا آخر!...
- كان الجرذ يسخر منا!...
- يا للإهانة!...

انتاب الثوار غضب فجائي ففقدوا صوابهم وبدؤوا يركلونه ويصفعونه ويلكمونه وهو يتوسل إليهم:
- هل ستقتلوني، يا أبنائي؟!
- لا بد من عقاب أقوى من القتل كي تستحقه...
- ألن ترحموا ضعفي؟!
- وهل رحمت ضعفنا في مسيراتنا السلمية التي قصفتها بالطائرات، وفي خلوتنا في بيوتنا حين سلطت علينا الجنود المرتزقة ليستبيحوا بيوتنا ويغتصبوا نسائنا ويقتلوا أطفالنا؟ هل رحمت ضعفنا آنئذ، أيها الوحش؟!
- أنا الآن أعتذر لكم عما فعلته...
- **معمر القذافي** يعتذر! يا للمكر! يا للخديعة!...
- هل شققتم على قلبي لتشكُّوا في إيماني؟!
- اسكت، أيها الجرذ. اسكت!...

اقتحم شاب غاضب الدائرة المطبقة على العقيد، شاهراً سلاحه:
- دعوني أقتله.

- لا. لن نقتله. سنحتاجه لفضح كل من كانوا معه وكل ما قام به وكل الأسباب التي جعلته يتحامل على هذا الوطن طيلة هذه المدة...
- وماذا سنفعل بشهاداته وفضائحه التي قضى كل حياته يلطمنا بها حيثما ولينا وجهنا، على المذياع والتلفاز والجرائد والمقررات الدراسية؟!...
- هذا الوحش بين أيدينا هو الوحيد الذي يعرف ملفات البلاد. لم يكن يشرك أحدا في قراراته. كل من تحلقوا حوله كانوا مجرد ديكورات، مجرد أكسيسوارات، مجرد زوائد. سنحافظ على سلامته لنقرأ كف قدرنا ونعرف لماذا حدث لنا ما لم يحدث لغيرنا...
- دعوني أفجر هذا الرأس المجنون الذي أنتج "**الكتاب الأخضر**" وباقي الحماقات. لن تتحرر ليبيا إلا بتفجير هذا الرأس. دعوني أقتله قبل أن يفلت من أيدينا بسهو ساه أو فعلة فاعل. دعوني أقتله قبل أن يفلت منا ويعود لتدمير ما أفلت منه!...

أمام لامبالاة الثوار، سحب الشاب بقوة أزرار قميص العقيد ليفرغ في صدره ذخيرته من الرصاص لكن عينيه وقعتا على مسدس ذهبي خطف بصره فانتزعه من حزام **العقيد** وتفحصه فوجده يحتوي على ذخيرة حية كاملة لم يستعمل منها العقيد ولو رصاصة واحدة....

حك المسدس بظفره فلم يتقشر سطحه الذهبي...

وزنه بيده فكان أخف وزنا من المسدسات التي تدرب عليها في مخيمات تدريب الثوار على حمل السلاح...

قربه من عينيه وقرأ العبارة المنحوتة باللون الأسود على جانبيه: "**شمس الفاتح لن تغيب**"...

انتاب الشاب غيظ مضاعف:
- هل سيدوم حكمك إلى الأبد، أيها الجرذ؟!

كان **العقيد** ممددا على العربة يمسح الدم الفوار على وجهه ولم يجب على الأسئلة الفوارة على مسامعه إلا بعدما اختلطت بالركل والرفس واللطم:
- لماذا لم تلبس أحذية من ذهب، أيها الجرذ، وتنصب عجلا من ذهب يكون لك إلها؟ تكلم!...

كان الرفس والركل والصفع واللطم يقلب **العقيد** ويقلّبه في كل الاتجاهات ولا يترك له مجالا للحفاظ على توازن يسمح له بالجواب. أما التوازن الكامل فقد اختل عندما سمع شابا من الثوار يقرأ عبارة منحوتة على مسدسه الذهبي الذي صنعه له جهابذة السحرة الأفارقة لحمايته من غدر الغادرين: لم تكن العبارة هي ذاتها التي سهر على نقشها على مسدسه في أدغال إفريقيا!...

أحس **العقيد** بالدوار الأخير...

سيلاقي حتفه حتما ولن يقف إلى جانبه لا سحرة **الفودو** ولا سحرة **الكابالا**...

لقد تمكن خصومه من تعقيم فاعلية السم الذي يتسلح به بنفس الطريقة التي عقّمَ بها **ويلينغتون**، الجنرال الإنجليزي، سمّ الإمبراطور **نابليون بونابرت** وأخصى فاعليته قبيل معركة **واترلو** إذ سحب منه، عن طريق جهاز استعلاماته، سيفه المصنوع من الألماس، معدن الخلود، ووضع محله سيفا شبيها قبيل المعركة بأربع وعشرين ساعة فظهر **ويلينغتون لنابليون** في ساحة المعركة وهو يدرك بأنه سيصارع خصما خاسرا مسبقا يحارب بسلاح زائف...

عبارة "**شمس الفاتح لا بد أن تغيب**" المنقوشة على المسدس نبهت العقيد المسجى على العربة إلى أن المسدس لم يكن مسدسه الأصلي وأنها **باروديا** للعبارة الأصلية "**شمس الفاتح لن تغيب**"...

لم يكن المسدس مسدسه، ولا الشعار المنقوش عليها شعاره، ولا القدر الذي اختاره له السحرة قدره...

تحت وابل الركل، كان **العقيد** ينتظر القدر الجديد بفارغ الصبر...

تحت وابل الرفس، كان **العقيد** ينتظر الخلاص بأسرع طلقة...

تحت وابل اللطم والصفع، كان جسد **العقيد** مجرد قشرة صرصور هجرتها روح الإزعاج والتشويش على الآذان التواقة لسماع أصوات الشحرور القادم للتّوّ للتبشير بزحف الربيع...

بتاريخ 28 نونبر 2011

"عَدُوُّ الشَّمْسِ"
البَهْلَوَانُ الذِي صَارَ وَحْشاً

﴿أول رواية عن الثورة الليبية﴾

الفهرس

السيرة الذاتية لمحمد سعيد الريحاني

- حاصل على شهادة **الماستر** في **الترجمة والتواصل والصحافة** من **مدرسة الملك فهد العليا للترجمة** بطنجة/المغرب (تابعة **لجامعة عبد الملك السعدي**، تطوان/المغرب)، و على شهادة **الماستر** في **الكتابة الإبداعية** من كلية الفنون والعلوم الاجتماعية **بجامعة لانكستر** بالمملكة المتحدة، وعلى شهادة **الإجازة في الأدب الإنجليزي** من كلية الآداب والعلوم الإنسانية **بجامعة عبد الملك السعدي**، تطوان/المغرب.

- عضو "**اتحاد كتاب المغرب**"منذ 2008، وعضو هيأة تحرير "**مجلة كتابات إفريقية**" الأنغلوفونية ***African Writing Magazine*** الصادرة من مدينة بورنموث ***Bournemouth*** جنوب **إنجلترة** منذ 2010، وعضو الهيئة الاستشارية **للتقرير العربي للتنمية الثقافية** الذي تصدره **مؤسسة الفكر العربي** من **بيروت** منذ **2010...**


صدر له باللغة العربية:

- "**الاسم المغربي وإرادة التفرد**"، دراسة سيميائية للإسم الفردي **(2001)**
- "**في انتظار الصباح**" ، مجموعة قصصية **(2003)**
- "**موسم الهجرة إلى أي مكان**"، مجموعة قصصية **(2006)**
- "**الحاءات الثلاث**"، **أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (حاء **الحلم**، 2006)
- "**الحاءات الثلاث**"، **أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (حاء **الحب**، 2007)
- "**الحاءات الثلاث**"، **أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (حاء **الحرية**، 2008)
- "**تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب**" (الجزء **الأول**، 2009)
- "**تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب**" (الجزء **الثاني**، 2011)
- "**موت المؤلف**"، مجموعة قصصية **(2010)**
- "**حوار جيلين**" (مجموعة قصصية مشتركة مع القاص المغربي **إدريس الصغير**) 2011
- "**عَدُوُّ الشَّمْسِ، البَهْلَوَانُ الذِي صَارَ وَحْشاً**"، **أول** رواية عن **الثورة الليبية** (2012)
- "**وراء كل عظيم أقزام**"، مجموعة قصصية **(2012)**
- "**لا للعنف**"، مجموعة قصصية **(2014)**، منشورات **مكتبة سلمى** بتطوان/المغرب
- "**حاء الحرية**" (خمسون قصة قصيرة جدا)، **(2014)**، منشورات **وزارة الثقافة المغربية** بالرباط/المغرب
- "**العودة إلى البراءة**"، مجموعة قصصية (2015)، منشورات **اتحاد كتاب المغرب** بالرباط/المغرب.
- "**صدقية الشعار الإعلامي العربي من خلال بناء الصورة الإخبارية**" (شعار قناة الجزيرة، "**الرأي والرأي الآخر**"، نموذجا)، 2015.

وصدر له باللغة الإنجليزية:

- ***Waiting for the Morning*** *(Short Stories)* Bloomington (Indiana/USA): Xlibris, 2013. **ISBN:** 978-1493104093

كما استضافته عدة كتب **للحوار**:

- **أنس الفيلالي**، "**رَيْحَانِيَاتٌ**" (سلسلةُ حوارات شاملة منْ **أربعينَ** لقاءً صحفياً مع **محمد سعيد الريحاني**)، عمان/الأردن: **دار الصايل للنشر**، الطبعة الأولى، 2012 (الطبعة المغربية: **مكتبة سلمى الثقافية**، تطوان/المغرب، 2015).
- كتاب جماعي، "**مع الريحاني في خلوته**" **(**ثلاثون حوارا في الفن والثقافة والأدب مع **محمد سعيد الريحاني** أجراها أدباء ونقاد وإعلاميون عرب) تطوان/المغرب: **مكتبة سلمى الثقافية**، الطبعة الأولى، 2015.

أشرف على **الترجمة الإنجليزية** للنصوص المكونة **للقسم المغربي** في عدة أنطولوجيات نشرتها دور نشر "**ريد سيه بريس**" و"**أفريكا وورلد بريس**" و "**مالت هاوس**":

- "**صوت الأجيال: مختارات من القصة الإفريقية المعاصرة**"، ***Speaking for the Generations: An Anthology of Contemporary African Short Stories*** (ثمانية نصوص مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لثمانية قصاصين مغاربة)، 2010.
- "**أنطولوجيا الشعر الإفريقي الجديد**"، ***We Have Crossed Many Rivers: New Poetry from Africa*** (خمس قصائد مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لخمسة شعراء مغاربة)، 2012...

له عدة **دراسات في الإعلام**، قيد الإعداد للطبع:

- "**مساهمة الإعلام في حوار الحضارات: الأسباب والوظائف والغايات**".
- "**الصورة الإخبارية في إعلامي الحداثة وما بعد الحداثة**" (دراسة مقارنة للأداء الإعلامي لقنوات **السي إن إن**، **أورونيوز**، **فرانس 24** و**الجزيرة**).